

LASHEEN
THE CONJURORS COVENANT

شيرين هنـــائي

لاشين

الكتاب الأول - عهد الدجالين



KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE

رواية

بداية من البدايات



شمال أوروبا.

خمسة آلاف عام قبل الميلاد.

تدهن الساحرة جسدها العاري بدم طفل رضيع، مُلقاة جثته تحت الأشجار، تمزقها الضواري.

يعشق الشياطين ملمس الدماء على أجساد السحرة، يشعرون بنشواتهم، بالقلوب المضطربة بين جنباتهم. يعشق الشياطين إحساس الحياة المُعجز الذي يضج به جسد بن آدم المصنوع من صلصال كالفخار.

تتكور الساحرة على نفسها، تغلق عينيها وتسمع صوته. ليس كأي صوت، وكأن عقلها ذاته يتحدث ويبث الأفكار في خلاياها.

نريد أن نعبر.. نريد أن نعبر.. سنعبر ونحرر الذي حُرم الضياء.

تخيط الساحرة الجلد البشري المدبوغ بخصلات من شعرها، وتمسحه بقلب الرضيع الدامي. تأخذ صفحة من الثلاث عشرة صفحة وتحرقها. الكتاب الملعون الأول.. العهد الأول منذ آلاف السنين.

لا ترى أو تسمع شيئًا في ظلام الغابة، لكن البرد يسود، وتتكاثف ندف الثلج على الأشجار من حولها، وتفِر الضواري.

لو أن لها أن ترى، لرأت طاقة تنفتح أعلاها، تُطل منها أجسامٌ حالكة مستطيلة ذات أطرافٍ مدببة كالرماح. يتشممون جروح جسدها إثر الأشواك التي تمرغت فيها قبلًا، ويلعقون الدماء. يتصارعون أيهم أحق بهذا الجسد العفي.

دقائق تمر، يعصفون ببعضهم البعض، ثم يخترق جسدها من عند الجبهة أحد الكيانات السود، وينسحب الباقون عائدين من حيث أتوا، ثم تنغلق الطاقة، ويذوب الثلج، وتعود الضواري لتنهي ما بدأته.

تُدرك الساحرة أن الشيطان المُتلبس بجسدها لا يملك الكثير من الوقت، وعليه أن يجد جسدًا أقوى لسيده، كي يستطيع بدوره تحرير شيطان أعظم.

شمال أوروبا.

حقل في نهاية موسم الحصاد- آخر أيام الخريف.

يرتدي زيًا فاخرًا، يمتطي حصانًا أبيضًا موشومًا بالحرق عند الرقبة. عندما يمر جوار أطفال يلعبون، فإنهم يهلعون ويختبئون. يقترب من بقرة ترضع صغيرها، فترفسه وتعدو مبتعدة. يمر بحذاءِ صف الأشجار، فتلوي جذوعها مُباعدة بينها وبينه، ولو في إمكانها الهرب، لفرت زحفًا حتى ولو كان في فرارها فنائها.

يقف وسط الحقل الخالي، وسط الظلام، وسط البرد الذي يزحف من تحت حوافر حصانه ويمتد ليجمد المحاصيل المَكومة. يتمتم، تتحرك شفتاه بكلمات تُسيل معها دماء مُسودة تغرق صدره وتروي الأرض من تحته. الأرض تنبض كالقلب، ترتج بحياة لعينة تدب فيها.

لو أن له عينان لرأى البرق الأخضر يضرب الأرض في ذات الموضع ست مرات مُتتالية. لكنه مطموس العينين، يرى بقوة الكيان الشيطاني الساكن فيه.

تنفلق الأرض ومن جوفها تنضح الدماء السوداء، وما يشبه جذور الأشجار. تتحرر من مكمنها تحت الأرض، وتزحف إلى الخارج. تزحف وتزحف وكأنها بلا نهاية. وأخيرًا، يظهر جذع محترق خبيث، ويصرخ في لوعة، في غضب، في انتصار.

لقد عبر وتحرر.. عاد شيطان الرعب.

أنا.. لاشين.

لا شك أنها الحقيقة الأهم التي يجب عليك استيعابها، إلى جانب كوني الأول، والأخير. ولتحمد الله على هذا. فالعالم لن يتحمل معرفة حقيقة

ما مررت أنا به، ولا ما تسببت فيه، ولا ما أصبحت عليه.

أي لاشين آخر لا يُعوَّل عليه، سواء كان من عائلة الدجَّال الأشهر في طنطا: الشيخ لاشين، أو كان من خارجها. أي لاشينٍ آخر عليه أن يتوارى حتى تنتهي الأزمة التي تسببتُ فيها عمدًا وبلا قصد.

هل يستأهل الأمر أن أحكي؟ لم أدرك ضرورة ذلك إلا مُتأخرًا، وكأن لا زال بداخلي ما يشفق على البشر ومصيرهم لو ظلوا على جهلهم. وأحيانًا ما أرى أن الجهل نعمة، فلو أن رصاصة خرجت من مسدس لتصيبك بعد كسر من الثانية، فبماذا ستستفيد لو عرفت أنها انطلقت؟ لا وقت للفرار، ولا لصلاة أخيرة.

لكنني سأحكي.. كفعلٍ بَشريٍّ أخير، ولأنني وعدت سهير زاهر، سأحكي.

كما أذكر، فلم أحيا قط حياة عادية كباقي خلق الله. وُلدت لأسرة متوسطة، نعيش في منزل ريفي واسع في ريف طنطا. نملك أرضًا لا نعمل فيها، وإنما نؤجرها.

كانت أمي ربة منزل طيبة، حسنة السُّمعة، بلا قريب أو صديق. كنا أسرة «مقطوعة من شجرة» وقد سمعتُ كلامًا عن أصول عائلتي سواء عن كونها من الصعيد أو من خارج مصر، لكن التفاصيل ظلت سرًا كشأن كل ما يحيط بعائلتنا.

حتى أن مهنة والدي ظلت مخفية عني حتى بلغت السابعة من عمري، وقد كنت أعاني كي أعرف سر ابتعاد التلاميذ في المدرسة عني، بل وسر كراهيتهم لي. كنت أضحك لنكاتهم، وأتركهم ليأخذوا شطائري، ويمزقون كراساتي فقط كي ينظروا لي بعين الأخوّة والصداقة ولو لمرة. كنت أتوق إلى أن أشعر بدفء الصحبة وبشعور من ينتمي لجماعة ما، حتى ولو كانوا مجموعة شياطين صغيرة تفتقر إلى أسنانٍ أمامية.

لكنني عرفت أنني لم أكن في نظر كل أبناء القرية سوى ابن لاشين الدجَّال. لم أكن أعرف معنى الدَّجل، ولم يكونوا يعرفون. لكن بدا لنا

أنها سُبة وأنا أستحقها بشكل ما.

ولمَ لا أستحقها وأبي هو الدجال ومع ذلك ينبذني ويمنعني حتى من لمسه وكأنني أجرب؟ لمَ تعاملني أمي بحرص من يتعامل مع وشقٍ أو كوبرا تنفث السم؟ والسؤال الذي ألح عليَّ كثيرًا: لمَ يكرهني الناس؟ بل: لمَ أحبني أنيس أخي الأكبر؟ لمَ اختارني له خليلًا من دون الخلائق، ولمَ دفعني للقراءة وممارسة الرياضة وتقوية جسدي حتى ولو بِكُوزي إسمنت مثبتين على طرفي عصا؟

في أيام مولد السيد البدوي، والذي يبدأ في اليوم الحادي عشر من أكتوبر، يرحل أبي مع أنيس إلى المولد، ويحزم صندوق أمتعة يحوي البخور وعصاه المزخرفة وصُررً من أغراض لم أميزها. يقيم أبي وأخي أسبوعًا في مدينة طنطا، ويعود أنيس مُحملًا بحَبّ العزيز وحلوى المولد وشطائر السمين.

خلال غيابهما، كانت أمي تغسل الأرضيات بالماء والملح، وتشعل البخور، وتعتكف أغلب يومها وتصلي وتصوم بلا انقطاع. كانت كذلك تمنعني من الخروج ليلًا أو لمس الطيور التي تربيها. لم أسألها عن سر تصرفها، فقد أَلِفتُ النبذ، وصارت معاملة أنيس لي هي الاستثناء الذي يثبت قاعدة واحدة: لا أحد يحب آدم لاشين.

أول مرة أتعرض للضرب الصريح من أحد أقراني، كنت في الحادية عشر من عمري، وقد ضربوني لأن أبي تسبب في موت والدة واحد من أبناء قريتنا، وقيل أنهم ضربوني لأن أبي شفى والدة واحد من أبناء قريتنا من مس الجان! هنا بدأ فضولي يُنبت أوراقًا ترويها الحكايات المُتداولة عن أبي. مَن أبي وماذا يعمل؟ وكيف تجتمع الأضداد في آراء الناس عنه؟

عقدت يومها العزم على أن أرى بنفسي، فقد كان الأطفال يكرهونني ويخشونني إلى حد كبير، لكن بعد أن أذيع خبر أنهم ضربوني ولم أدافع عن نفسي رغم قوة بنيتي، فسيصير جسدي مشاعًا تطوؤه الأكف

والأقدام غدوة ورواحًا.

انتظرت رحيل أبي وأنيس إلى المولد، وأخبرت أمي أنني ذاهب لعملي، والذي كنت بدأته منذ شهور، وكان عملي مع تاجر كتب قديمة يتلخص في أن أحمل الكتب وأنقلها من المخازن والتجار إلى سيارته، ثم أنقلها من سيارته إلى دُكانه. وهو عمل لا أحتاج منه مالا، لكن أنيس يصمم على أن أعمل وأدَّخِر وأبتعد عن المنزل أغلب الوقت.

تحجَّجت أمي بكل الحجج التي تملكها، فلا يصح أن أبتعد عن عينها كثيرًا أثناء غياب أبي. أصررت على موقفي، وطمأنتها إلى أنني سأذهب إلى المدرسة، ثم سأعرج على الدكان ساعة أو اثنين وسأعود قبل المغرب.

لكنني لم أذهب إلى المدرسة، ولأول مرة تطأ قدماي أرض مولد السيد البدوي. كأنني دخلت كونًا مختلفًا عما عشت فيه سني حياتي القليلة. تلقفتني الروائح الشهية والعطنة والمُغوية، وقذفت بي لأصوات الإنشاد والبكاء والغناء. واستقرت بي أخيرًا في رحابة المسجد، حيث قابلت رجلًا آخر لم يكرهني، وهو الشيخ طاهر.

رأى نظراتي الحائرة وشرودي، فظن غالبًا أنني تائه. أخذني إلى زاوية صغيرة خارج الجامع وأعطاني طعامًا وكوبًا من اليانسون. ثم جلس يُسبِّح حتى أذان الظهر. كنت أريد المكوث في حضرته حتى تقوم القيامة علينا، لكنني كذلك كنت آتٍ في مهمة مُحددة، وعليَّ ألا أضيع اليوم في سواها.

بعد صلاة الظهر سألته إن كان يعرف الشيخ لاشين، فأخبرني أنَّ لاشين ليس شيخًا. من ناحية اللغة فهو كهل، ومن ناحية اللقب الشائع لوظيفته فهو أبعد ما يكون عن الدين. سألته مجددًا عن مكانه، فنصحني أن أبتعد عنه حتى لو كان والدي.

للحظات أفلت قلبي بضع دقات مُتتالية، حتى أدركت أن الشيخ طاهر لم يكن يعرف أن لاشين أبي، وكنتُ كالذي على رأسه «بطحة»، أرى

وأسمع وأفهم مُنقاذًا لخوفي من انكشاف هويتي لشخص لا يضطهدني.

رأيتُ أنني لم أجد لديه ضالتي، فشكرته ومشيت بين الناس أسأل من أطمئن إليه، حتى أرشدني أحدهم إلى مكان الشيخ لاشين، فتسللت إلى حيث هو لأرى.

يومها عرفتُ معنى كلمات مثل: دجّال، وساحر، ورعب، وجهل، واحتياج، ومرض، وخُبث.. عرفت، وليتني لم أعرف.

كيف أعرف ما سأحكيه من أمر سهير ومُهاب وغيرهما من شخصيات حكايتي؟

دعونا نتفق أنني أعرف الكثير، وهي لعنة لم أطلبها إلا مدفوعًا، حين سحب أولاد الأبالسة -حرفيًا- حياتي البسيطة من تحت قدماي.

لا تسألوني مرة أخرى، وستعرفون كل ما تحتاجون إلى معرفته في موعده. ثقوا في لاشين.. وإن وجدتم من يعرف خيرًا مني فاذهبوا إليه.



المنيل

الساعة الثالثة والنصف فجرًا

لم تنم سهير زاهر، ظلت تتقلب في الفراش الواسع جوار أختها رجاء، وترمق تمايل أغصان الأشجار من خلف الستار الرقيق، وتسترق السمع لهمهمات النسائم وعواء الكلاب من مكان بعيد.

طالما تسمع أصواتًا أيا كانت، فهي لا تخاف. لا يتملكها الخوف إلا في الهدوء المطبق. وكأنها تسمع وترى وتتذوق وتشعر بأذنيها، فإن كُفَت عنها تلك الحاسة، تخبطت وانهارت وبكت.

ظلت تُطمئن نفسها أنها لا زالت تسمع، مدت يدها إلى هاتفها المحمول، ودخلت على صفحة فيسبوك الخاصة ببرنامج «بعد منتصف الليل- عودة آلة الرعب». كانت دومًا ما تقرأ كلمة «آلة» على إنها «إله»، فترتجف، وتذكر آلهة الإغريق والرومان الوثنية الغاضبة.

تهمس لنفسها: «خُرافات يا سهير، بعد ثمانية وأربعين عامًا على ظهر الأرض لا زلت تستمتعين بإفزاع نفسك كالأطفال».

تُغمغم رجاء -أختها الكُبرى- وتتقلب في الفراش، فترى سهير وجهها الستيني الصبوح يتفتح أمامها كزهرة، فتُربت على كتفها وتدعوها لاستكمال النوم، ثم تقوم إلى الشرفة مُتدثرة بشال. تجلس على كرسي خشبي مُتحاشية النظر إلى النيل، وتقرأ تعليقات المتابعين المُنتظرين للموسم الجديد من البرنامج، والذي يفصله عن موسمه الأول خمسون عامًا بالضبط.

تدرك تعطُش المتابعين للرعب، للغموض، لسماع صوت ضيف البرنامج القديم وصوت مُقدمه. تعرف سهير أن الأول قد توفي، والثاني اختفى في ظروف حريق غامض عام ١٩٧٠، بعد عام من تقديمه للبرنامج عبر

موجات الإذاعة.

تتصلُ بأسامة الصاوي، زوجها، وحبيب عمرها، ورفيق حياتها منذ قُرابة عشرين عامًا، إن تغافلنا عن علاقة حب الطفولة منذ أيام المدرسة الابتدائية. يرد على الاتصال فورًا وكأنه ينتظر سماع صوتها في كل لحظة.

- أسامة..

- القلق، هه؟ أعرف. أنا كذلك قَلِق. لكنه برنامج كأي برنامج ظهرتِ فيه على التلفاز من قبل.

- كل البرامج التي ظهرتُ فيها كنت ضيفة، أجيب أسئلة مُعتادة آلَفُها كمصورة تُوثِّق الموالد فوتوغرافيًا، لكن هذا البرنامج يختلف. أنا هنا لأدلي برأيي في أمور ما ورائية.. سيهاجمونني وسيكرهونني.. أعرف.

- وهل يعرفونك كي يكرهونك؟

- أنت تعرف أنني لا أنتمي لأي قالب يألفه الناس. صوتي أصغر من سني، وزني أقل من المُعتاد، شعري أقصر من شعر أغلب النساء، لا أعيش في العاصمة كما ينبغي أن يفعل أمثالي، لدي حفيد وأنا لم أكمل الخمسين.

- وما الغريب في كل هذا يا سهير؟ أنت فقط لا تناسبين القوالب المُعدة مُسبقًا، ولهذا أحببتُك، وسأحبك للأبد.

تحمر وجنتاها، وتمرر كفها الدقيق على شعرها القصير وتتنهد. لا تراجُع ولا مجال للارتباك أو الخوف. كل ما عليها فعله هو محاولة التزام الوقار والتركيز على إجابات لأسئلة المُستمعين، والتغاضي عن الصمت المخيف داخل ستوديو التسجيل.

حدائق الأهرام- الرابعة فجرًا

ظل مُهاب عمارة يستمع إلى تسجيلات الحلقات السابقة من الموسم الأول من «بعد منتصف الليل»، ويعيدها عشرات المرات. ثم يتدرب أمام المرآة على مقدمة برنامجه، ويحاول ألا يكون شريف السعدني مُقدم البرنامج القديم. ثم يُدرك أن البرنامج إذاعيًا ولن يرى وجهه أحد، ولن يتأثر المشاهدين بوسامته، وعليه أن يعتمد على صوته فقط.

الانسلاخ من تقديم الأعمال الساخرة، إلى تقديم برنامج عن الرعب هو أمر صعب للغاية، وكأن عليه ألا يكون هو بسخريته، وسماجته، وحزنة العميق الذي يُخفيه خلف السخرية والسماجة كي يستطيع أن يعيش يومًا آخر.

كان برنامجه الساخر الذي قدمه على يوتيوب قد حقق نجاحًا لا بأس به، وعُرِض عليه التمثيل السينمائي في أدوار تافهة تستغل شهرته، أو تقديم برامج تليفزيونية للإعلان عن مُكملات غذائية وأدوية تخسيس. لم يُعرض عليه عمل مميز قط، ولم يكن يريد سوى أن يدفن مهاب القديم مع أخيه في قبره، وأن يصبح مُهابًا جديدًا أقوى وإن لم يكن أفضل.

ظلت عبارة أمه تتردد في ذهنه: «عامل زي اللي رقصوا على السلالم، لا اللي فوق شافوك ولا اللي تحت سمعوك.»

كانت تريده أن يظل معها في المحلة، ويربي معها أخويه التوأم. لكن الذكريات أكبر من أن يحتمل، والألم يفوق قدرته على العيش دون أن يتمزق وتتشتت أشلاؤه.

أعداد متابعي انطلاق الموسم الأول تتزايد، الإشعارات على فيسبوك

توتره. لكن لا تراجع.



***

أعرف باطنهم وظاهرهم، وأدرك كل تلك التناقضات، ولا زال شيء بداخلي يشعر بخوفهم. لكن على العجلة أن تدور، وأن تتلطخ بالدماء والنحيب والصراخ.



فليبدأ الرعب...

الحلقة الأولى

٣٠ أكتوبر ٢٠٢٠

ستوديو ديموس للصوتيات- شارع الهرم

الساعة العاشرة مساءً

يصل مهاب مُبكرًا، لا زال أمام البث على الهواء ساعتين. يدخل حجرة التسجيل المُبطنة المعزولة عن الصوت. يرش المُعطر ويشغل التكييف. يُخرج من حقيبته مجموعة من كُتب الرعب منها كتاب سهير زاهر المُصوَّر أشباح الموالد، يضع الكُتب فوق رفٍ هناك، ويضع وسط الكتب مايكروفون قديم بديع الصُنع، قد وجده مُهاب أمام باب شقته في المحلة، وغلب عليه الظن أنه من مُعجبة تُفضِّل حجب هويتها.

لكن المايكروفون كان قديمًا، مُتربًا، غريب الرائحة. ولو كان هدية لكان ملفوفًا على الأقل في ورق هدايا أو موضوعًا في كيس من أي نوع. لكن ماذا عساه يكون سوى هدية؟!

جلس ينظر إلى محتويات الرف في رضا، وكأنه لم يتخلص بعد من عادة صنع «ديكور» مميز حوله كي يظهر على الكاميرا كما كان يفعل أثناء تسجيله لبرنامجه القديم المرئي لا المسموع.

يشاهد من خلال النافذة الزجاجية التي تفصله عن باقي الستوديو، المخرج ومهندس الصوت يتمازحان، وكماماتهم الطبية متدلية على صدورهم. العالم يدور بشكل عادي للغاية برغم عام غريب مر على البشرية.. أوبئة، حرائق، صراعات.. لن يتوقف العالم عن الدوران حتى لو سحقنا تحته.

من مكانه يرى سهير تدخل الاستوديو، مُتدثرة بِبالطو أنيق، ترتدي

نظارتها الكبيرة الشهيرة ذات الإطار الفضي، وتوزع ابتساماتها الطفولية على من عرفت ومن لم تعرف.

خرج لها وصافحها، وجلس معها على الأريكة يحاول أن يُذيب توتر سهير البادي على ارتعاشة كفيها.

- أستاذتنا.. لقد أنرتي المكان.

- متوترة يا مُهاب! لا أستطيع أن أكف عن الارتجاف. قُل لي أنني لن أدمر البرنامج!

- لن تدمريه، لأننى قادر على تدميره من أول دقيقة!

يضحكان. تمر الساعات كدقائق، ويجدا نفسيهما في مواجهة المايكروفونات في الحجرة المعزولة الباردة.

تهمهم سهير بأغنية لعمرو دياب بصوت هامس، كي لا تهلع من الصمت المُحيط بها. وحين يُحدثها مُهاب ترد بصوت عالٍ كي تخيف تلك الكيانات التي تحل في عقلها بحلول الصمت.

يبدأ العد التنازلي على شاشة التابلت أمام مهاب. متابعي اليوتيوب يواصلون كتابة التعليقات الحماسية. تجاهد سهير كي لا تتصل بأسامة وتبكي. كفها يقبض تحت المنضدة على هاتفها المحمول ويرتجف.

يشرب مهاب كوب الماء، وينطلق قائلا للمستمعين:

- مساء الفل! أنا مُهاب عمارة، وهذا هو الموسم الثاني من برنامج «بعد منتصف الليل». في عام ١٩٧٠ توقفت إذاعة الموسم الأول من البرنامج، والذي كان يُقدمه الإعلامي شريف السعدني، مع ضيفه الدائم خبير الرعب الدكتور رفعت إسماعيل. يُقال وقتها أن سبب توقف البرنامج هو تأثيره السلبي على الأطفال. لكن -بيني وبينكم- أرى أن ثمة سرً وراء التوقف المُفاجئ .. سرً غامضً، مُرعبً، مُخيفً..

ربما تكشفه لنا الأيام، وربما يظل على غموضه للأبد.

يرتفع حاجبي سُهير، وتتراجع خلفًا في مقعدها، مُتعجبة من الأداء الحماسي لمُهاب، والذي يليق أكثر بمقدم برنامج توك شو، لا برنامج يتحدث عن الرُّعب.

يقول مُهاب مُردفًا:

- اليوم، نُحيي البرنامج من جديد، ونعدكم برعب يُنسيكم كل ما يُقلقكم.. نعدك، سنُرعبك!

أعزائي المستمعين، المرعبين والمرعوبين، إن أردتم مُشاركتنا أحداثًا مُخيفة حدثت لكم، أرسِلوا مُلخصًا لها في بريد صفحة البرنامج على فيس بوك، مرفق معها رقم هاتفكم، وسنختار رسالتين أسبوعيًا، رسالة نتصل بصاحبها، ليحكي لنا تجربته في بث مباشر على الهواء، ورسالة ثانية نقرؤها ونحاول أن نجد لها تفسيرًا مع ضيفتنا الدائمة، المصورة الفوتوغرافية الشهيرة سهير زاهر. أهلا بك أستاذة سهير.

تتسع عينا سهير وتتجمد في مكانها لثوان، كانت تحاول الاتصال بأسامة دون أن تُدرك أنها تفعل ذلك، وقد ظهر صوت أزيز قوي على السماعات. لم تسمعه هي، لكن مهندس الصوت أشار لمهاب كي يتدارك ما تفعله سهير.

يهمس مهاب في توتر لسهير:

- ممنوع استخدام الهاتف المحمول. نحن على الهواء!

يكسو الحرج سهير من قمة رأسها حتى أخمص قدميها. ماذا حدث لها وكيف تجمدت هكذا. تهمس:

- آسفة!

ثم تُردف بصوت أكثر ثباتًا:

- أهلا بك يا مُهاب. هل يمكنني أن أقول شيئًا؟



في توجس يجيب:

- تفضلي..

- أسامة، لم أستطع الاتصال بك.اسمعني من خلال الراديو أو الإنترنت.

يتساءل مهاب عما دهاها، يبدو وكأنها تنتوي تدمير البرنامج كما كانت تخشى. يسألها:

- وهل يمكنك أن تُقدمي لنا السيد أسامة؟

- آه..أسامة زوجي! أستاذ علم النفس في كلية الآداب جامعة طنطا. هذه هي المرة الأولى التي أكون فيها خارج المنزل في القاهرة وحدي، ولوقت متأخر. لكن ليس عليه أن يقلق، فرجاء معي.

وكأن عقل سهير قد انقسم قسمين، قسم يلعن توترها ويحاول أن يُعيد إليها تركيزها، وقسم مُصمم على دفعها لفعل كل ما كانت تخشى فعله، وكل ما قد يتسبب لها في حرج بالغ.

يسمع مهاب همسات المخرج في سماعته، ينصحه أن يُكمل البرنامج ولا يعير ما تقول اهتمامًا أكثر، لكنه يسأل:

- رجاء؟

- أجل، أختي.. تسكن في المنيل.

يكاد المخرج يصرخ في مهاب أن يُكمل البرنامج بشكل عادي، فيبتلع الأخير ريقه ويهتف بصوت عال ساخر بشكل زائد عن اللازم:

- دعونا نتكلم إذًا عن سر اختيارنا لضيفة البرنامج. أغلبنا قد سمع عنها وعن كتابها الشهير «أشباح الموالد»، والذي يضم صورًا التقطتها في الموالد والاحتفالات الشعبية، وظهر فيها ما يشبه الأطياف أو الأشباح. يضم الكتاب كذلك تفسيراتٍ روحانية وخوارقية لهذه التجسدات الغامضة. والحقيقة أن أستاذة سهير قد قامت بمجهودٍ بحثيٍّ ممتاز.

حدثينا عنك وعن الكتاب يا أستاذة سهير.

ألقى مُهاب نظرة سريعة على تعليقات المستمعين على يوتيوب، وأهاله الهجوم على طريقة أدائه، وعلى التغييرات التي طرأت على البرنامج القديم، بما فيها وجود ضيفة غريبة الأطوار كسهير. أزاح مهاب التابلت جانبًا، كي لا تلمح سهير التعليقات.

قالت سهير وقد بدا صوتها أكثر ملائمة، وزالت تقريبًا رعدة كفيها:

- منذ التسعينات وأنا أعمل جاهدةً في مشروعي لتوثيق الموالد والاحتفالات الشعبية في مصر بشكل فوتوغرافي. كوني وُلدت وعشت في طنطا، فأنا قريبة من أشهر الموالد التي يؤمها الناس من كل أنحاء مصر، حاملين حكاياتهم وأساطيرهم معهم. أسامة دائمًا ما كان يقول لي أن الموالد تُلخص الخلفيات التراثية للمصريين، ففيها ترى القادمين من وجه قبلي وبحري.. يمكن أن ترى أيضا من هم ليسوا ببشر، خذ حذرك!

تضحك سهير ضحكتها الطفولية العالية، وتندم وهي تضحكها، ولا تستطيع منع نفسها من الضحك كي تخفي ذكرياتها مع الموالد، ومن فيها، وما فيها.

- جاء وقت الجد! تقصدين من ظهروا في صورك. هم ليسوا ببشر، أليس كذلك؟

- صحيح. على مدار نيف وعشرين عامًا، جمعت عددًا كبيرًا من الصور الفوتوغرافية، والمُصورة بأغلب أنواع الكاميرات. وكنت ألاحظ دومًا ظلالًا لم أرها بعيني، أو أجسامًا لم تظهر إلا في الصور. لم أستطع وقتها أن أجد تفسيرًا، فأقمت معرضًا لتلك الصور، وفتح ذلك المعرض آفاقي على تجارب مماثلة في أماكن أخرى من العالم. ومن هنا قررت جمع الصور في كتاب، ونجح الكتاب، وحقق لي الشهرة!

مجددًا تضحك سهير في خجل. يسألها مُهاب في فضول حقيقي:

- الموسم الأول من البرنامج توقف في أكتوبر ١٩٧٠، بسبب تأثيره السلبي على الأطفال. أتظنين أن برنامجنا سيؤثر على أطفال هذه الأيام؟

- أطفال هذه الأيام لا يشاهدون إلا أفلام الرعب والعنف، ولم تعد قصص الرعب والأساطير مثل الغولة والشمامة تخيفهم.

يضحك مهاب مُتسائلا:

- الشمامة؟ ما هي الشمامة؟

- جنية تشم أفواه الأطفال وأياديهم، وتأكل من لا يغسلهما جيدًا بعد الأكل!

تضحك، فيضحك مهاب. تتوتر، فتقبض على الهاتف المحمول في كفها، ويتحرك إصبعها تلقائيًا نحو قائمة الاتصال.

- هذه حكاية مُخيفة، لا بُدَّ أن تحكي لنا في كل حلقة عن صورة من الصور التي...

من جديد يهمس المخرج في أذنه أن هاتف سهير يُرسل أو يستقبل مُكالمة، وصوت الأزيز واضح. يهمس مهاب بدوره لسهير:

- الموبايل..

- آسفة.. نسيت..

يقول مهاب في مرح:

- تحياتنا للدكتور أسامة، وليسمعنا من الراديو أو على يوتيوب ريثما تنتهي الحلقة. أعزائي المستمعون، فاصل ونعود إليكم..

يتنفس مهاب الصعداء، يدخل المخرج ليحدث مهاب، ويبدو عليه الضيق من الأداء المسرحي لمهاب، ومن توتر سهير الزائد إلى حد تكرار استخدامها للهاتف المحمول أثناء البث. يتحاشى كل منهما النظر إلى

الآخر، فكليهما يعتقد أنه أفسد على رفيقه عمله.

بعد الفاصل، عاد مُهاب ليستمع إلى ما يقوله المُخرج بشأن الاتصال الأول في هذا الموسم. دعت سهير الله في سرها أن تكون مُكالمة سهلة، بسيطة.

أعاد مُهاب تذكير المُستمعين بطُرُق المُشاركة في البرنامج، ثم أردف:

- «الكنترول» يخبرني أن معنا مُكالمة «قنبلة».. مرحبًا..

يأتي صوت المُتصل هادئًا، مهمومًا، مُضطربًا.

- مساء الخير أستاذ مهاب، مساء الخير أستاذة سهير. أنا نادر.. نادر شريف السعدني.

أفلت قلب سهير دقتين، وابتسم مهاب مُشرقًا وهو يقول:

- حضرتك ابن الأستاذ شريف السعدني، مُقدم الموسم الأول من البرنامج؟

- أجل.

- أهلا بك!

- أشكرك. أولا أريد أن أبارك لكما على بداية الموسم الثاني.

- بارك الله لك. أتمنى أن تتابعنا وتُبلغنا رأيك.

- لا أظنني سأتابعكم.

كان رده كدلو ماءٍ سقط على رأسيَ مهاب وسهير. سأل مهاب في حرج:

- ولماذا؟ أظننا أفسدنا برنامج والدك!

- لا أبدا يا أستاذ مهاب. العفو.

يصمت نادر، وينتظر مهاب أن يكمل، لكنه لم يفعل. قالت سهير في

حماس بدا لها زائدًا:

- أنا لم أتابع البرنامج القديم وقت إذاعته عام تسعة وستين يا سيد نادر، لكنني سمعت حلقاته عبر الإنترنت على قناة اسمها أوديوه...

قاطعها مُهاب سريعًا كي لا تذكر اسم القناة، فتداركت الخطأ، وأردفت:

- سمعت تسجيل الحلقات القديمة. كانت مُبهرة فعلًا، وكنت دائمًا ما أسأل نفسي عن وقع تلك الحلقات على الأطفال الذين سمعوها وقتها. احكِ لنا ما خلف الكواليس!

قال نادر في تشوشٍ واضح:

- وقت عرض الحلقات، كنت أبلغ من العمر ست سنوات تقريبًا. الطبيب النفسي الذي يعالجني أخبرني أن ذاكرتي مشوشة وبها فجوات كثيرة نتيجة صدمة حدثت لي في فترة الطفولة، إلى جانب عوامل وراثية أخرى. لذا، لا أذكر شيئًا بدقة إلا الأحداث السابقة لاختفاء والدي بثلاثة أيام.

كان أمر اختفاء- انتحار- احتراق شريف السعدني، معروفًا ومثارًا للجدل منذ زمن. وكانت سهير قد قرأت عن الغموض الذي جثم على تلك الأحداث في نهاية عام سبعين. لكن جاءت الفرصة الآن لاستبيان ما حدث بالضبط.

يُكمل نادر حكايته:

- أهلي يقولون أنه توفي، لكنني أذكر جيدًا أنه اختفى بعد محاولته إحراق الشقة التي كنا نعيش فيها. أرى المشهد أمامي الآن.. الحمام، متناثر فيه ثمار مُجوفة، نحتها أبي، وفي قلبها شموع. كان الظلام حالكًا إلا من ضوئها. لا أذكر سبب الظلام، لكنني أذكره.. أذكر من كان واقفًا وسط الشموع، مُدثر في عباءة سوداء تغطي كامل جسده، مُرتديًا قناعًا مُرتجلا من طبق ورقي. هذا الغامض المُخيف كان أبي،

ولم يكن يخلع هذا الزي طيلة الثلاثة أيام التي أذكرها. أمسكت نيران الشمعة في ثمرة التفاح الموضوعة على طرف الحوض في طرف منشفة، وبدأ كل شيء في الاحتراق...

ظللت طيلة حياتي مُقتنعًا أن هذا هو ما حدث، بينما تُصر عائلتي وعمتي شروق على أن ما أذكره لم يحدث، ولم يقع حريق في البيت. إذًا، ما هي الصدمة التي تعرضت لها في طفولتي، وأفسدت ذاكرتي؟ لا بُدَّ من أن شيئًا قد حدث!

قال مُهاب في حماس لا يليق بكآبة المُتصل ولا ألمه:

- ألم تُفكر في أن شيطانًا قد استحوذ على والدك مثلا؟!

قاطعته سهير في محاولة لإبداء التعاطف، وحث مهاب على الهدوء:

- أيمكن أن تكون وفاة والدك في هذه السن الصغيرة قد تسببت لك في صدمة، صورت لك مشهد الحمام هذا؟

رد نادر في غضب مكتوم:

- عشت خمسين عامًا في محاولات مُستمرة لاعتناق هذه الفكرة، خاصة أنَّ والدتي قد ماتت قبله بسنة واحدة، يوم ٣١ أكتوبر ١٩٦٩.

سأل مهاب في فضول:

- صدفة مُقلقة. أتظن أن ثمة رابط بين وفاتيهما؟

قالت سهير في تعاطف:

- رحمهما الله، اليوم هو ذكرى وفاتيهما.

ساد الصمت ثوانٍ، بعدها قال نادر:

- الحقيقة، بعد معرفتي بخبر إذاعتكما لموسم جديد من البرنامج، قررت ألا أتصل بكما. فلم أعد أريد أن يكون لي أي شأن بهذا البرنامج،

أو بسيرة والدي.

أضافت سهير بتعاطف كبير، وهي تحاول أن تكبح أكثر تعاطفها:

- أتفهم أن حزنك عليه قد دفعك للغضب منه، كونه قد مات وتركك. ربما خيَّل إليك عقلك الباطن أنه حاول إيذاءكما أنت وعمتك كي لا تشعر بألم فراقه.

ضحك نادر ضحكة مريرة وقال:

- أتظنين يا أستاذ سهير أن خيال طفل قد يوصله لتفاصيل دقيقة، كقناع الورق المُقوى والفاكهة المحفورة؟

قال مهاب مُجاريًا فرضية سهير:

- ربما قادتك أجواء احتفالات «الهالوين»، وأجواء أقنعة التنكر والقرع المحفور، إلى ذلك التخيل.

- أولاً، تلك الأحداث قد دارت أواخر عام سبعين، ولم يكن أحد تقريبًا في مصر يعرف الهالوين أو يحتفل به. ثانيًا، كان في إمكاني استكمال بقية حياتي مقتنعًا أنني قد تخيلت كل شيء، لولا.. لولا أن عمتي قررت أن تقول لي أن خيالاتي كانت حقيقة، وأن شقتنا القديمة قد احترقت بالفعل.

شهقت سهير وهتفت:

- تعني أن والدك حاول إحراقك أنت وعمتك؟! وكيف هربتما؟!

قاطعها مهاب بطريقته الإعلانية المُنفلة عن أجواء الرعب:

- أعزائي المستمعين، ألم أعدكم بالرعب؟! قلبي حدثني يا أستاذ نادر أن هناك قصة شيقة خلف المكالمة.

- حسب حكاية عمتي التي حكتها لي اليوم فقط، فما رأيته يومها كان حقيقيًا، وتفسيره يختلف تمامًا عن تفسيري له.. تفسير مُرعب، دفعني

للاتصال بكم...

سأحكي لكم ما حدث مع نادر، وقد عرفته كما كل شيء عن مهاب وسهير، وعنك أنت أيضًا. واتفقنا ألا تسأل مرة أخرى عن كيفية معرفتي بكل هذا، فأنا لاشين. وهي إجابة كافية.

في يوليو، ١٩٦٩، وصلت شروق، عمة نادر وأخت شريف السعدني، إلى القاهرة. حيث ستلتحق بالجامعة فيها. وكانت ثمة صداقة قوية بينها وبين سارة، زوجة شريف. وجلست الأخيرة تُفضي إليها بما أسرَّت، وتحادثها عن سوء الأحوال المالية، وعن اشتياقها لابن آخر يؤنس وحدة نادر الصغير.

كانت سارة تحضر الفطور يوميًا وتجلس وشروق وشريف ونادر ليتناولونه في الشرفة. لكن سرعان ما أصبح شريف مُنطويًا، مُكتئبًا، بسبب ضيق الحال وعدم توافر عمل له كمذيع أو مُعد إذاعي.

في يومٍ، جلست سارة تطالع الجرائد وقد استيقظت مُبكرًا في غير موعدها، بعد رؤيتها لحلم مُخيف عن جذر شجرة محترق يطاردها. بينما كانت شروق تلاعب نادر وتتقمص أدوار الحيوانات في القصة التي كانت تحكيها له.

فجأة اتسعت عينا سارة في جدية وهتفت:

- شروق، أتعرفين دكتور رفعت إسماعيل؟!

- كلا.. من هو؟

- انظري لهذا الخبر، الرجل قد صار مرجعًا لأمور الخوارق منذ فترة، ولا يحدث في مصر حدث غريب إلا وسألوه فيه عن رأيه.

- وما الحدث الغريب الذي تريدين استشارة الدكتور فيه؟ أتريدين له أن يُفسر حلمك؟ قلت لك أنه أضغاث أحلام، لا تهتمي..

- اسمعي.. لمَ لا يُقدم شريف برنامجًا إذاعيًا يستضيف فيه الدكتور

رفعت؟ فكرة مختلفة وتناسب موضة الرعب الرائجة مؤخرًا. أتعرفين كم واحدة من صديقاتي جربت تحضير الأرواح؟ كم منهن يعانين مع جن عاشق، أو سحر يترصد بهن؟

- أتظنين أن شريف ستروق له الفكرة؟ أعني..هي فكرة شيقة فعلًا، لكن..

- لن نخسر شيئًا.. تعالي!

قامت سارة وأمسكت بيد شروق، وجذبتها حتى وصلا إلى حيث يجلس شريف يسمع الراديو شاردًا. كان شريف شابًا متألقًا ذكيًا مُتحمسًا، لكن أعباء الحياة قد طحنته، وأزادت عليه المسئوليات. وكانت سارة تعرف أن العمل هو ما سيعيده شريف الذي عرفته وأحبته. ظلت الشابتين تقنعانه بالفكرة، حتى أضاء وجهه أخيرًا، وبحث عن رقم هاتف الدكتور رفعت. وخلال أيام كان قد تعاقد على البرنامج، الذي ستبدأ إذاعته في يوم ٣١ أكتوبر ١٩٦٩.

في يوم إتفاق شريف على التعاقد مع محطة إذاعية، عرفت سارة أنها حامل في شهرين، وتفاءل الجميع برزق المولود.

لكن الأمور لم تسر كما ظنوا، وبدأت سارة في المعاناة من كوابيس شنيعة. في بدايتها رأت رجلا غاية في البهاء، يتوج رأسه تاجًا ومن ظهره يظهر جناحين من نور. كان يشبه بالضبط تمثالًا لملاك رأته في صورة لإحدى المقابر الغربية. اقترب منها الرجل ومس بطنها بأطراف جناحيه. رغم النظر المُنومة التي رأتها في عينيه، إلا أن ثمة شيء خاطئ في ملامحه لم تستطع تحديده.. شيء ناقص.

خافت، تراجعت ولفت بطنها بذراعيها، وللحظة رأت الجناحين يستحيلان إلى ما يشبه الجذور الجافة السوداء، ورأت الكيان أمامها على حقيقته.. لم يكن جذر شجرة أبدًا.. أبدًا.

ظل الحلم يراودها بتنويعات مُختلفة، كلها تُشعرها أن هناك من يريد

جنينها مقابل المال والحياة الرغدة. في آخر كابوس من تلك الكوابيس كانت ترى مشهدًا واحدًا:

البرق الأخضر يضرب الأرض في ذات الموضع ست مرات مُتتالية..

تنفلق الأرض ومن جوفها تنضح الدماء السوداء، وما يشبه جذور الأشجار تتحرر من مكمنها تحت الأرض، وتزحف إلى الخارج. تزحف وتزحف وكأنها بلا نهاية. وأخيرًا، يظهر جذع محترق خبيث، ويصرخ في لوعة، في غضب، في انتصار..

كانت تصحو من النوم، لترى شريف مُرتبكًا، مرتعبًا. لكنه يبتسم في وجهها ويداري كل مشاعره.

ما لم تعرفه سارة، ولم يعرفه أحد سواي أنا والدكتور رفعت، أن شريف كان يرى في أحلامه ما تراه سارة، لكنه لم يكن يرى ملاكًا، بل حورية مُطابقة لخياله عن الحور العين في الجنة، تُطالبه بأن يسلم لها ابنه، مقابل السعادة الأبدية.

شريف تجرأ وسألها في أحد الأحلام:

- وماذا تريدين منه؟

- أريد أن أعيش في جسده الصغير الجميل، أريد أن أعيش في عالمكم ولو لفترة.. سأحافظ عليه وسأمنحك كل ما تحتاج.. مال.. شهرة.. حياة طويلة هانئة.

- ولمَ تريدين العيش في عالمنا؟ ألستِ في الجنة؟

- جنتك وجنتي مفهومين مُختلفين يا شريف. لا تخف.. ابنك سيكون في أمان، وسينجح برنامجك، وستعلم أختك أفضل تعليم، وستجلب لزوجتك كل ما تريد، وستتحقق أحلام نادر.. ستكون أبًا وزوجًا مثاليًا يا شريف.

وكانت هذه هي نقطة ضعفه، ألا يكون مثاليًا. كل شيء يفشل في

تحقيقه يهز ثقته في نفسه بشدة، ويريه عيوبه فقط ويحجب عنه أي ميزة. كان يشعر بالتقصير في حق أخته وزوجته وابنه. لم يُرد شيئًا سوى أن يكون مثاليًا.

من هنا بدأت المأساة، والتي لم يعرف تفاصيل بدايتها مهاب وسهير، ولم يعرفا سوى ما حكاه نادر عما يذكره من آخر ثلاثة أيام من حكاية أبيه.

***

بعد أن حكى نادر عن حلم والدته، والذي حكته له عمته منذ ساعات فقط، قالت سهير في ذعر:

- حلمٌ مُخيف! عمتك لأول مرة تقرر أن تحكي لك الحقيقة بعد خمسين عامًا.. الكوابيس وقت فترة الحمل مألوفة لأغلب السيدات، لكنني لم أسمع قط عن حلم بهذه البشاعة.

حاول مُهاب أن يتذكر جيدًا سبب ألفة هذا الحلم، أيشبه مشهدًا في فيلم رآه من قبل؟ أخيرا قال:

- لا أعرف ربما يبدُ هذا الحلم مألوفًا لدي.

هتف نادر في إهتمام:

- مألوفًا؟ كيف؟ هل رأيت نفس الحلم من قبل؟ بالله عليك تذكر.. لا أعرف معناه، لكن لا بد وأنه يعني شيئًا خطيرًا.

- فعلًا لا أذكر.. أكمِل حكايتك يا سيدي.

- ظل كابوس أمي يتكرر، وانشغل أبي في تجهيزات برنامجه، وتدفق الأموال إلى جيبيه ,أغدق علينا بها، لكن ظلت معاناة أمي، وزياراتها

المُتكررة للأطباء مع عمتي، ولم تجد لديها أي مرض يوهنها ويضعفها هكذا.

مع بداية شهر أكتوبر، كانت أمي تتعمد تغطية وجهها وجسدها طيلة الوقت، بالطبع كان والدي قَلِقًا عليها لكن لم يكن في يده شيء إلا طلب استشارة الدكتور رفعت إسماعيل، بصفته الطِّبية طبعًا، والذي لم يجد لديها أي مرض عضوي، ورشح لنا طبيبًا نفسيًا.

في يوم الحادي والثلاثون من أكتوبر، سجل أبي أولى حلقات البرنامج، وحين عاد إلى البيت، وجد عمتي مُنهارة جوار أمي، التي كانت قد طعنت بطنها بسكين، فماتت.

سأل مهاب في قلق:

- تعني أن والدك كان يسجل الحلقات في مواعيدها ووالدك متوفية في وقت قريب؟

- أجل.. عمتي قالت لي أنه كان مُصرًا على استكمال البرنامج، وكان يتحجج بأن هذا العمل هو ما سيجلب له الشهرة والمال الذي نحتاجه. خلال العام الذي كان يُذاع فيه البرنامج، أحبني أبي بشكل زائد. ربما لأنني أشبه والدتي، ربما لأنني صرتُ يتيمًا.. ربما لصدمته في موت أمي واحتياجه لإظهار تلك المحبّة.

عندما كان ينزل لتقديم البرنامج على الهواء، كان يطلب مني وعمتي أن نسمعه عبر المذياع.

ومع بداية شهر أكتوبر من عام ١٩٧٠، حكت لي عمت أن أبي كان يفقد الوزن، وامتنع عن النوم، وظل يحدق في وجهي كل ليلة وأنا نائم. سمعته عمتي في يوم يحادثُ دكتور رفعت عبر الهاتف.. كانوا يتحدثون عن الرعب، أو عن شيطان الرعب، وعن رجلٍ يُدعى جاك. كان أبي يكتب ما يُلميه عليه دكتور رفعت في دفتر، ثم خبأ الدفتر في خزانته بعد انتهاء المُكالمة.



سأل مهاب:

- ولم تعرفوا ما يحويه الدفتر؟

همست سهير:

- صبرًا ! أكمل يا أستاذ نادر.

- بعدها، بدأ أبي في حفر ثمار خضروات وفواكه مختلفة، وحفظها في الثلاجة. ظنت عمتي أنه قد جُن، فقد كان يغطي وجهه طيلة الوقت بأي شيء أمامه، خرقة قماش، قطعة ورق، ويفتح فيها ثقبين مكان العينين. عندما كانت تسأله عما يفعل، كان ينهرها ويأمرها بأن تُغلق عليّ وعلى نفسها حجرتها، وتبتعد عنه.

اتصلت عمتي بالطبيب النفسي الذي كان يتابع حالة أمي، لكنه لم يستطع إفادتنا دون أن يكشف على أبي.

هنا تتلاقى حكايتي وحكاية عمتي.. يوم التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٧٠..

دخل علينا الحجرة، أنا وعمتي، وناولنا أقنعة طفولية تُمثل شخصيات كرتونية، وطلب منا ارتداؤها، مع تغطية أجسادنا بالكامل حتى لا يرانا الرعب. صرخت فيه عمتي ونعتته بالمجنون. أذكر ما قاله لها حرفيًا في هدوء غريب. قال: «الرعب ليس شعورًا، الرعب طفيل يتغذى على أرواحنا، وبخوفنا ينمو، ولن أسمح للرعب بأن يأخذ نادر مني. سارة لم تكن أشجع مني حين قتلت نفسها وقتلت ابننا كي تحميه منه».

قال مُهاب مُستمتعًا:

- منظور مُختلف للرعب، أن نعتبر الرعب كائنًا ذكيًا يختار ويخطط ويهاجم.. أكمل..

- سيطر على تفكير عمتي أن تهرب بي وتعود بي إلى المنيا عند أخوالها. يوم الثلاثين من أكتوبر.. استيقظنا على صوت دق مسامير.

خرجنا من الحجرة لنجد أن أبانا يغلق كل النوافذ بقطع الخشب والورق المُقوى. حين وجد أننا لا نرتدي أقنعتنا، نهرنا. حملتني عمتي وجَرَت بي نحو الباب الشقة لنهرب، لكنها وجدته موصدًا.

كان نهارًا، لكن الشقة صارت مُعتمة لا يدخلها الضوء. وقف أبي في ركن وأشعل سيجارة، ولم يكن من قبل مُدخنًا. قال بصوت واثق بارد: «عندما صعد الرعب من باطن الأرض في بداية الشتاء، زحف بجذوره السوداء بحثًا عن مسكن، عن جسم بشري يُخفي فيه بشاعته، وينشر من خلاله سمومه. قابل جاك، رجل بسيط.. عندما عرف أن شيطان الرعب دخل عالمنا، خدعه، وقال له أنه يقبل باستضافة الرعب في جسده، وحين دخل الرعب بين جنباته، قتل جاك نفسه، لكن لم يَمُت. أنقذه شيطان الرعب من الموت، وعاقبه بالنفي في عالم الظُلمات إلى الأبد.

ذاع بين الناس أن جاك قد باع نفسه للشيطان، لكنهم كانوا مغفلين. جاك أنقذنا مؤقتًا، حتى وجد شيطان الرعب جاك آخر مُستعد أن يستضيفه كضيف خفي في برنامج إذاعي، ويرسل منه نسخة لكل بيت».

ابتلع مهاب ريقه، ونظر لسهير التي كانت قد تجمدت في مكانها من ثقل ما قاله نادر، ثم قال:

- والدك قال أن شيطان الرعب كان هدفه استغلال البرنامج كي يصل للمستمعين أنفسهم؟ كأنه مرض مثلا أو فيرس! أكمل يا أستاذ نادر.

ضحك أبي بعدها ضحكة حزينة، ميتة وأردف: «لم يكن ينير لجاك في عالم الظلمات، إلا ثمرة لفت محفورة كانت معه وبها شمعة. وعليَّ أنا أن أضيء شمعة جاك العصر الحديث».

تحول صوت والدي لصوت يشبه الزئير وهو يصرخ فينا ويأمرنا أن نعود لحجرتنا. صوته قد أحرق قلبي..



يوم الحادي والثلاثون من أكتوبر...

***

كل شيء يختلط في عقلي، فأعرف ما أعرفه دون سبب يفسر لي معرفته. وكأنني كنت مع شريف وابنه وأخته في ذلك اليوم. كنت معهم وكنتُ فيهم، أشعر بما يشعرون، وأهاب ما يهابون، حتى أن استرجاع ما حدث يبث في رعبًا غريبًا، حتى بعد أن صرت لاشين كما ستعرفونه.

كان شريف قد أغلق الحجرة على شروق ونادر من الخارج، وكانا يتضوران جوعًا وعطشًا. حاولت شروق أن تصرخ من النافذة طلبًا للنجدة، لكن مع أولى صرخاتها، فتح شريف الباب وضربها.

ضربها خوفًا، ضربها محبة، ضربها وكان ألمها يرتد إلى روحه ويمزقها. لكنه لم يكن ينام، أو يأكل.. كان شيطان الرعب مرابطًا في مؤخرة عقله، يتوعده، ويهدده. يهمس بلا توقف: «لن تخدعني كما خدعني جاك وأمثاله، وكما خدعتني زوجتك. سأصل إليك في موعدنا.. سآخذ ابنك، أو تقتله بنفسك».

الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق قبل منتصف الليل، فتح شريف باب الحجرة جزئيًا لكي يدخل. بيد مرتجفة، وبلا مُبرر عقلاني، ارتدت شروق القناع البلاستيكي ووضعت قناعًا آخر على وجه نادر، ثم حملته وخرجت به إلى الظلام الحالك في الصالة، ولم يكن هناك مصدر للضوء سوى الحمام. اقتربت ببطء من مصدر الضوء، ورأت ورأى نادر شريف، يرتدي عباءة سوداء، ويغطي وجهه بقناع الورق المقوى، ويقف وسط دائرة من الفاكهة المُجوفة التي تحمل شموعًا داخلها. ومن حوله تناثرت الشموع داخل الثمار، على الحوض وفوق المرحاض وعند الزوايا.

رآهما شريف ، فجرَّهما بعنف إلى ركن الحمام خلف الشموع، وكأنه يحبسهما في زنزانة من نار. ثم ذهب سريعًا فتح باب الشقة، وعاد ليقف داخل دائرته رافعًا ثمرة قرع عسلي محفورة ومُضاءة.

جاك العصر الحديث..

عند ركن الباب، كان شيئًا مُحترقًا لزجًا، وكأنه مغمورٌ في القار، يتسلل فوق الأخشاب.. يتمدد في حركة متقطعة تدفعك للشك في سلامة عينيك.

أعرف تلك الحركة، التي تُشعر بسرعتها وبطئها في آن واحد، فلا يستطيع عقلك أبدًا إصدار الأوامر بأي تصرف، أو تحديد جهة وسرعة الفرار. الوقت في عالم الظلمات يمر بشكل مختلف لا يوصف، وحين يعبر شيطان إلى عالمنا، يعبر مُثقلا بقوانين عالمه، مُكبلا بها. كأنك تحبس إعصارًا في زجاجه.

ظلت الجذور تتحرك وتنتشر على الحوائط والسقف، وفي ركن الحمام، أمسك لهب شمعة بفوطة مُعلقة هناك، فبدأت تحترق وتنشر النيران حولها. لكن أحدًا لم يلحظها سوى نادر، الذي تعلقت عيناه بالنار كالمُنوَّم.

ظل شيطان الرعب يبث الخوف والظلام من حوله مُجسدين، فالشياطين لم يكن لها يومًا جسدٌ ماديّ، لكن أعين البشر تُترجم تواجدها الطاقي إلى صورٍ غير مُترابطة، مُخيفة، كونها لا تشبه شيئًا من عالمنا، ويفسرها عقلنا مُقربًا إياها إلى أقرب شيء مادي نعرفه.

شيطان الرعب ليس جذر نبات محترق، لكن عقولنا تُقربه لهذه الصورة، وخيرًا فَعَلت. لن يتحمل بشري رؤية الحقيقة كاملة أبدًا.

كان شريف يرتجف وهو يقول لأخته، وقد علم أنها المرة الأخيرة التي سيحادثها فيها:

- اهربي يا شروق الآن! اهربي وسامحيني.. ضعفتُ أمام الشهرة

والمال، خدعني اللعين وأعمى عيناي. خذي دفتري من جوار الباب وستفهمي منه كل شيء. لا تحاولي إنقاذي.

تتحرك شروق، ويرمي شريف ثمرة القرع على الأرض، لينشب الحريق بسرعة في الوقود الذي أغرق به أرضية الحمام.

بكت شروق وصرخت وهي تعدو خارجة من باب الشقة، وتدفع نادر كي ينزل درجات سلم العمارة سريعًا. تذكرت أنها لم تأخذ دفتر أخيها من جوار الباب، فعادت مادة يدها أمامها نحو الدفتر.

ظل نادر يبكي وهو يدق على باب الجيران، بينما صوت غريب غير مسموع يصم أذنيه. أصوات الشياطين تصل للعقل مباشرة، وتصم الآذان من الداخل لا الخارج. أصواتًا حادة كثيفة تتأرجح ما بين الصراخ والكلام والشهقات.

مدت شروق يدها وكادت تضعها فوق الدفتر، والظلام يتكاثف حولها ويصير ثقيلًا كالعجين. رأت جذرًا مُحترقًا مُلتهبًا يوضع على الدفتر قبلها.



***

وسط بُكائه قال نادر بصوت طفولي، وكأنه عاد بالزمن للوراء خمسين عامًا:

- ظللت أنادي على جارنا.. عمو رجائي، افتح لنا.. لكن... والدي مات مُضحيًا بحياته من أجلي، وأنا عشت عمري أكرهه.

انتصر فضول مهاب فسأل:

- قلوبنا معك.. عمتك شجاعة حقًا.. لكن.. الدفتر..



قاطعته سهير:

- مهاب! الرجل مُنهار!

أكمل نادر وكأنه لا يسمعها:

- احترقت الشقة تمامًا، ولم يجدوا أثرًا لجثة والدي. عمتي قالت لي أن الشرطة ظنت أننا قد أحرقنا الشقة بالخطأ بينما والدي بالخارج. لكن.. أين ذهب والدي؟ لقد شهد حارس العقار أنه لم يغادر العمارة منذ ثلاثة أيام.

سأل مهاب رغمًا عن كل شيء:

- والدفتر؟

- أخذه الشيء المُرعب. مدت عمتي يدها لتأخذه، فوجدت جذر شجرة محترق يوضع عليه، وحين رفعت عيناها أقسمت لي أنها رأت عيني والدي، وكان وحيدًا، لكنه لم يكن خائفًا.

المهم، أريدكم أن تُعيدوا النظر في أمر استمرار هذا البرنامج. فكرا في الضحية التالية، فكرا في أبنائكما.. لو نلتم الشهرة من خلاله، فسيكون للشهرة ثمن!

أغلق نادر الخط، ثم هتف في حماس وكأنما كان يحبس أنفاسه:

- مكالمة نارية! أسطورية! ما رأيك يا أستاذة سهير؟

كانت سهير تبحث على الإنترنت من خلال هاتفها المحمول عن أسطورة قرأت عنها قديمًا، لكن التوتر أزاح تفاصيلها عن عقلها. في حرج قال مهاب:

- يا أستاذة.. ممنوع الـــ..

- أريد فقط أن أتأكد من معلومة.. وجدتها! أسطورة جاك أو لانتيرن، أو مصباح جاك. أسطورة آيرلندية قديمة تقول أن جاك هذا قد باع

روحه للشيطان، وحُكِم عليه بالنفي الأبدي في ظلام لا يُنير له فيه سوى ثمرة لفت محفورة بداخلها شمعة. هذا الجذر المحفور أو أصل ثمرة القرع العسلي المُميزة لاحتفالات يوم الهالوين. كلها أساطير من بقايا عبادات وثنية قديمة. لكن دعني أتساءل، ما هي بداية الأسطورة؟ هل الرعب كيان شيطاني قديم، وتحولت طقوس طرده من عالمنا إلى طقوس وثنية؟ لاحظ أن نادر لم يتحدث عن يوم الهالوين باعتباره يوم تعود فيه أرواح الموتى إلى عالمنا كما هو الاعتقاد الوثني. هو تحدث عن ذلك اليوم باعتباره اليوم الذي عبر فيه شيطان الرعب إلى الدُنيا.. الرعب الحقيقي لا رعب الحكايات والنوادر. ربما كان طقس الشمعة الموضوعة بداخل ثمرة طقسا لإخافته أو طرده، ربما كانت أقنعة احتفالات الهالوين مُصممة للاختباء عنه. كل هذا ممكن، أو غير ممكن.. نحن نحاول هنا تقليب الأفكار سويًا، لا فرض تفسير مُعين في مجال لا مكان فيه لليقين.

تنفست سهير الصعداء بعد أن أدلت بدلوها بطريقة مُنسقة، ولم تتوتر سوى عند النهاية فقط، حين فكرت في ردود أفعال المُستمعين عن حديثها عن الشياطين ككيانات حقيقة موجودة.

سأل مهاب:

- تقصدين أن الرعب شيطان، واعتبر الموسم الأول لبرنامجنا بوابة للعبور إلى الناس؟ وقد وقَع عقدًا للشهرة والمال مع شريف مقابل أن يمنحه ابنه للسكن في جسده، ثم أفاق شريف بعدها وضحى بنفسه وبرنامجه من أجل ابنه؟

- بحسب ما فهمت من كلام الأستاذ نادر، أن شيطان الرعب كان يريد الاستيلاء على ابن شريف الثاني، الذي لم يولد بعد، كما استولى على جسد جاك في الماضي.. كان يبحث عن جسد طفل لا يقاومه ولا يخدعه. وعندما خدعته سارة مجددًا قرر أن يأخذ نادر، فخدعه شريف وضحى بنفسه هو الآخر. هل تتخيل مقدار غضب شيطان الرعب الآن!

أتظن أنه سيعود في عام ٢٠٢٠ ليجرب معنا؟

تضحك سهير ضحكتها البريئة المميزة وكأنما تتسلى بإرعابه، لكن الحقيقة هي أنها قد أرعبت نفسها. أجاب مُهاب مازحًا:

- أتظنين؟ أنا مُتحمس للغاية بالمناسبة. تخيلوا معي أعزائي المستمعين أن الرعب بنفسه معنا! يتسلل من خلال الواي فاي لبيوتكم وأنتم لا ترونه!

قالت سهير وهي تستعد للكذب، مُخالفة ما تشعر به:

- يا مهاب! لا تفزعهم! لنكن عقلانيين.. الرعب ليس كيانًا حقيقيًا، الرعب شعور مثله مثل الغضب والجوع والحب. أرى أن نادر قد صُدِم بعد وفاة أمه وأبيه، ومع كامل احترامنا للسيدة شروق عمته، فربما أثر عمرها على تذكرها للأحداث. الحريق قد يكون حدث بالفعل نتيجة ماس كهربي أو انفجار لسخان غاز.

مع غياب المعلومات عنا في أي قضية ما ورائية، سنظل في ظلام لا ينير لنا فيه سوى ثمرة قرع عسلي، أو جذر لفت!

يضحك مُهاب وهو ينظر تجاه الساعة:

- ها قد عدنا لنفس النقطة، وصرنا نحن جاك العصر الحديث! عمومًا، سنحاول التواصل مع الأستاذ نادر مُجددًا لاستبيان تفاصيل أكثر.

تضحك سهير هاتفة:

- مُصمم أنت على عصر الرعب لآخر قطرة!

- لقد وعدنا المُستمعين أننا سنرعبهم! ولن نترك بابًا للرعب إلا وسنطرقه! حتى الخميس القادم، نتمنى لكم الرعب والهلع حتى الصباح الباكر!

انتهى البث، وقام مهاب ليحادث المُخرج، بينما أخرجت سهير هاتفها المحمول فورًا وهاتفت أسامة. سمعت صوته المرح، بلثغته المحببه يتساءل:

- ما شعورك الآن وقد قدمتِ تحليلا ممتازًا لمكالمة صادمة كتلك؟

- أشعر أنني أفسدت كل شيء.. لا أعتقد أن ردود الأفعال في التعليقات على البث مُبشرة. لا أعرف لمَ لا أستطيع الكف عن الضحك في غير موضعه؟ لم لا أستطيع أن أكون وقورة بشكل كافٍ؟! كانت غاضبة حانقة، وفاجئتها ضحكة أسامة وهو يقول: لأنك سهير زاهر.. هذا أنت. لنكن واضحين، لن يحبك الجميع ولن يبغضك الجميع. لذا أكملي ما بدأتيه في ثقة. أغلب ما تعانيه بسبب التوتر، ومع الوقت سيزول أي أثر لما يضايقك. أعدك بهذا. نعمل على الاستفادة من الأخطاء سويًا حين تعودين. سأوقظك مبكرًا حتى تعودي لنا في موعد الإفطار.

عاد مُهاب إلى الحجرة المعزولة باسمًا مُحمر الأذنين بسبب تقريع المُخرج:

- كنتِ ممتازة يا أستاذة سهير.

- وكنتَ كذلك ممتازًا.

وقعت عيناهما سويًا على تعليقات المُستمعين، والظاهرة على التابلت. سُخرية وحنق على أداء مُهاب، وتباسط سهير وتعاطفها، ومُقارنات قاسية بينهما وبين الدكتور رفعت إسماعيل وشريف السعدني.

رفعا عيناهما معًا، وهتف كليهما في وقت واحد:

- لقد أفسدنا البرنامج!

للحظة ظن كلّ منهما أن الآخر سيتهمه بالتقصير، لكنهما في النهاية انفجرا ضاحكين.

خرجت سهير إلى الهواء البارد مع أختها رجاء، التي ما برحت تُقرعها على هفواتها في البرنامج. فكرت سهير في تشتيتها قليلًا فأخرجت هاتفها المحمول واقترحت أن تلتقط لها صورة «سيلفي» للذكرى.

وقفتا أمام سور الحديقة المجاورة لمبنى الستوديو، ووجهت سهير الكاميرا لوجهيهما والتقطت الصورة. نظرت لها سريعًا وتأكدت أنها واضحة، أفلت قلبها دقات عدة وقد لمحت ما يظهر خلفهما في الصورة، لكنها –كعادتها- تناست وضحكت، ثم دست الهاتف في جيب معطفها.

وقفتا دقائق حتى مرت سيارة أجرة، فركبتا وجلست سهير جوار السائق كي لا تضطر للنظر في عيني أختها فتبدأ وصلة أخرى من اللوم، لكن رجاء رغم ذلك استمرت في نقدها اللاذع.

- كل ما حدث كان بسبب قلة النوم. لو سمعتِ كلامي وتدربتِ لكانت الحلقة مرت في سلام.

لاحظت رجاء أن سهير واجمة، فلكمتها في كفها ضاحكة:

- لكنك كنتِ كالقمر!

- لم يرني أحد، فقط سمعوا «خيبتي».

- وصوتك كالقمر كذلك.. أتعلمين؟ أود أن أعيد الأيام الخوالي، وأتنزه حتى الفجر. أم تظنينني هرِمت؟

- ما رأيك أن نذهب إلى مطعم مثلا؟

- مطعم في هذه الساعة؟ لنأكل ذرة مشوية على النيل!

النيل المظلم الصامت يخيف سهير ككل ما ليس له صوت. تناولتا الذرة المشوية وهي تحادث أختها وتضحك بصوت عال كي تغطي على الصور التي تراها في عقلها كلما ساد الصمت حولها.

كانت عاجزة عن حكي ما تراه حتى لزوجها، كون ما تراه لا يوصف بأي

لغة. أشياء مفزعة تغويها بأن ترى منها المزيد. شعور سخيف اعتادته منذ طفولتها.

ضحكتا، وسارتا كمراهقتين أثملتهما الذكريات والمرح. رجاء توأم روحها، وبداخلها تحفظ سهير ذكرياتها السعيدة بعيدًا عن الأركان المظلمة الصامتة لذاكرتها.

***

أما مهاب، فبعد انصراف سهير، قلب الطاولة على المخرج ومهندس الصوت والإنتاج، وظل يمطرهم بنقده لكل شيء، وتحميلهم سبب كل الأخطاء التي وقعت أثناء الحلقة.

لم يكن يريد استخدام أسلوبه هذا، لكنه كان يدخره فقط للأوقات التي يكون متأكدًا فيها بأنه المُخطئ بشكل كامل. لم يكن يتحمل أي لوم أو نقد، فهو يعرف يقينًا أنه محدود القدرات كمذيع، ويعرف أن وسامته وتكرار عباراته السمجة هي ما دفعت متابعي برنامجه القديم للتعلق به. فكر كثيرًا في سبب اختياره لإعادة بث برنامج كان ناجحًا بدونه في الأساس، لماذا بعد منتصف الليل؟ ولم يضع نفسه ويضع سهير في مقارنة مع إعلامي موهوب وخبير في الما ورائيات؟

حين عاد إلى شقته، جلس أرضًا في شرفته الواسعة يحتسي كوبًا من القهوة، ويتخيل ما كان سيقوله له عمرو أخيه لو كان قد سمع الحلقة..

- حلقة «جامدة» جدًا يا مهاب ! مكالمة «صاروخية».. أرعبتني فكرة أن تظهر الأشباح في الصور.. فلنجرب أن نصور أماكنًا مهجورة..
قدمني إلى «طنط» سهير وسأقنعها بتشكيل فريق ما ورائي معي!

كان هذا هو حماس عمرو، وهوسه بالرعب والما ورائيات. كان محبًا ومُتحمسًا وصادقًا وصافيًا برغم الأيام التي كان يتشاجر فيها ومهاب إلى درجة الشتائم والمقاطعة. كان مراهقًا عنيدًا، تجري الشتائم الرائجة على شفتيه فيتدراكها ضاحكًا حين تنظر له أمه شذرًا. وكان لطيفًا كالماء البارد في يوم حار، وقد افتقده مهاب إلى حد الجنون.

***

كان هذا هو يوم سهير ومُهاب الأول في الورطة التي تورطا فيها دون أن يدريا. وصفتُ لكم بأمانة شكل حلقات البرنامج، والذي كان يمزج حكايات من ماضي سهير المُريب، الذي كانت تظنه عاديًا، وبين قصص المتابعين، والتي كان أغلبها كذبًا، اصطنعها أصحابها طلبًا للشهرة، وبعضها حقيقي إلى درجة تصيب بالهلع كل من سيكتشف تلك الحقيقة. فهل واثقين من تحملكم لما سأكشفه؟

***

كان ما رأيت والدي يفعله في المولد مُفزعًا. لم أتمكن من متابعة المشهد حتى النهاية، وقد تملكني الخوف منه، ومن أنيس نفسه! أنيس يسمح بما حدث أن يحدث؟ أنيس يستغل المرض والجهل لمنفعته وأبي؟

كنت صغيرًا، لكنني أعرف جيدًا معنى أن يستغل أحدهم ضعف شخص آخر.

للأيام التالية، ظللت أفكر فيما رأيت، وفي معناه. يقولون أن أبي ساحر

أو دجال، فأين أجد من يخبرني بالمزيد عن السحر والدجل؟!

طلبت من عم رضوان، صاحب مكتبة الكتب المستعملة التي أعمل بها، أن يسمح لي بقراءة بعض الكتب مقابل جزء من راتبي. هش الرجل وبش وضحك، ورفض أن أدفع مالا مقابل القراءة، لكن طلب مني أن أتحمل مسئولية الكتب التي أقرؤها وأن أحافظ عليها. الحقيقة أنه كان ينهرني رغم ذلك كلما فقد كتابًا أو وجد غلافًا مهترئا لا يذكر أنه كان كذلك. كنت بريئًا من كل اتهاماته، وتعلمت درسًا آخر: أن البشر كالبحر في تقلبهم، لا يصح أن تجزم بطيبة أحدهم أو خبثه، كل شيء قد يتغير في ثوان، ثم يعود إلى سيرته الأولى في ثوان.

بحثت كثيرًا في الكتب العربية التي تتناول السحر، ولم أفهم شيئًا مُطلقا. اللغة صعبة، والموضوعات تتطلب معارفًا بعلوم أخرى. سيل من الطلاسم والحروف المُقطعة يصدمني كما فتحت كتابًا من تلك الكتب. مع الوقت، أيقنت أن لا سبيل لمعرفة أي شيء عن السحر الحقيقي من الكتب.

في السنوات التالية، ترددتُ على الموالد وحضرت طقوسًا لطرد الجن على يد عشرات الرجال الذين يحملون لقب «شيخ»، لكني لم أرَ قط دجالًا آخر يفعل ما يفعله أبي. كتب السحر التي كنت أطالعها في المكتبة تُطابق تقريبًا ما فعله هؤلاء الدجالين، فماذا يفعل أبي؟ وفي أي كتاب وردت طريقته؟

في سن الخامسة عشر، ومع تطور لغتي الإنجليزية إلى حد ما، لاحظت عند تجار الكتب كتبًا باللغة الإنجليزية تتحدث عن السحر كعلم، وعن علوم الشياطين، وعن جمعيات لدراسة الروحانيات.. وعن.. وعن.. فجأة تكشفت أمامي عوالم مختلفة لم أكن أعلم بوجودها. لكن لقراءة تلك الكتب عليّ شراؤها، وعليّ التفرغ لتحسين لغتي، وكلا الأمرين كان مستحيلا حاليًا، خاصة مع دخولي المرحلة الثانوية، وحث أنيس لي على المذاكرة والالتحاق بكلية الطب أو الصيدلة، إلى جانب عدم

امتلاكي المال الكافي لشراء تلك الكتب.

وكان ثمة سبب آخر، وهو أنني وقعت في الحب..

لم أدرك ذوقي في النساء إلا في ذلك اليوم. كنت جالسًا على الأرض في المكتبة في يوم من أيام أجازة نهاية العام. الجو حار والدُكان خانق رطب، لكنني كنت أحاول تحسين إنجليزيتي في أسرع وقت بقراءة الروايات المُترجمة ومقارنتها بالأصل الأجنبي.

شممت عطرها أولا، وإن كنت أظن أنه لم يكن عطرًا، بل نوع من الصابون قوي الرائحة. نظرت نحوها وهي تدخل المكتبة، ترتدي بنطالا من الجينز وقميصًا رجاليًا مطوي الأكمام، وكانت قصيرة الشعر كالصبية، قصيرة نحيلة لا يبدو على جسدها أي ملامح للأنوثة، وقدرت أنها قد تكون في مثل عمري أو تكبرني بأعوام قليلة.

قام الحاج رضوان وسألها برفق عما تبحث عنه، فقالت أنها لا تبحث عن شيء محدد، وراحت تقلب في كومة من كتيبات مغامرات لليافعين، وتأكد ظني أنها في مثل عمري تقريبًا.

جمعت كتبًا في مجالات مختلفة، ثم وجدتها تبحث في الأرفف التي تعلوني. أفسحت لها لكنها تعثرت وهي تمسك كتابًا ثقيلًا، فسقط فوق رأسي مباشرة. احمرّ وجهها خجلًا وراحت تعتذر وهي لا تنظر إليّ. زادها هذا الارتباك جاذبية، وهممت بأن أحادثها، لكنني تذكرت أنني في بداية طريقي لاستكشاف حقيقة أبي وحياتي وبالكامل، ولا مكان لعلاقات عاطفية تُشتتني.

ترددت أكثر من مرة على المكتبة، وكأنما وجدت ضالتها لدينا، فكنت أختبئ وأراقبها من بعيد. حتى انتهت إجازة الصيف، ولم أعد منتظمًا في ذهابي للمكتبة.

ظل قلبي معلقًا بها، وتبعتها حتى عرفت منزلها، لا لشيء سوى أن أشعر بالأمان لو أردت فقط أن أرتشف من طيبة نظراتها لا أكثر.

لم تبِت سهير الليلة السابقة لإذاعة الحلقة الثانية عند رجاء، بل فضلت أن تظل جوار أسامة زوجها، وشريف ورانيا أبنائها. كان ما رأته في الصورة التي التقطتها لنفسها وأختها أقلقها، ولو أنها ظلت تمازح رجاء أن ما ظهر في الصورة خلفهما ما هو إلا نبات لبلاب جاف متدل على سور الحديقة خلفهما.

لا مفر من أن يكون مُجرد لبلاب، ولتدفن حدسها المُرعب خلف لحاقها بحفيدها الذي يبلغ من العمر عامين بين الصالة والشرفة، ولتندمج في حياتها الطبيعية بين ستوديو التصوير، وشجارات أبنائها، ومشاكساتهما لأبيهما حول التكييف الذي يعمل حتى بعد دخول الخريف، وإقامة رانيا عندهما بعد انفصالها، وتفاهة اختيارات شريف لقراءاته وملابسه وحياته بالكامل.

ثم يأتي الليل الذي يملكانه، هي وأسامة، فيجلسان في الشرفة يتناجيان ويضحكان، وتنسى كل شيء قد أهمها في لحظات لتنام كالأطفال.

***

في الاستوديو الهادئ، وقبل البث بسويعات، جلست سهير ومهاب يتحدثان عما يجب عليهما فعله بخصوص هجوم المستمعين عليهما. بعد أن هدأ مُهاب تمامًا، خطرت على باله فكرة أن يستغل الهجوم لصالحه، وأن يسخر من نفسه قبل أن يستمر الناس في السخرية منه.

رأت سهير أن فكرته ممتازة، وكأنها ترى مهاب لأول مرة، وتعرف سرًا آخر عن شخصيته المرحة ذات الغضب الطفولي. مهاب يستطيع تطويع الأمر الواقع لصالحه.. مهاب ذكي لكنه مُشتت، خائف لا أكثر.

لم تكن سهير تعرف عن مهاب شيئًا سوى أن أصوله من المحلة، وقد

حضر لها حفلًا لتوقيع كتابها أشباح الموالد في القاهرة، وعرض عليها فكرة البرنامج فلم تمانع لحظة. لم تعرف وقتها لمَ قبلت حتى قبل أن تستشير أسامة في الأمر أو تناقش مدى صحة قرارها، لكنها شعرت كأنما كانت تنتظر عرض مهاب منذ زمن، وأن البرنامج هو الشيء الذي خُلقت له، لا التصوير الفوتوغرافي.

مع بدء العد التنازلي للبث المُباشر. تركت سهير حقيبتها وهاتفها المحمول خارج الحجرة المعزولة، وإن ظلت تتحدث بلا هدف كي تكسر الصمت، ثم قررت في آخر لحظة أن تدس هاتفها في جيب معطفها.

وبدأ البث المباشر..

هتف مُهاب بطريقته الخفيفة:

- مساء الفل! أنا مُهاب عمارة، وهذا هو الموسم الثاني من برنامج «بعد منتصف الليل». نعدك عزيزي المُستمع برعب يُنسيك كل ما يُقلقك.. نعدك، سنُرعبك!

معنا ضيفتنا الدائمة الأستاذة سهير زاهر.. أهلًا وسهلًا أستاذة سهير.

تضحك سهير وتقول في مرح:

- أهلًا وسهلًا يا مهاب هل قرأت تعليقات المستمعين الأسبوع الماضي؟ يا لك من مبالغ أفسدت اندماج المستمعين!

يهتف مهاب في حرج لطيف:

- الحقيقة أنني أشعر بالحرج، وحتى أنت يا أستاذة لا تستطيعين احتمالي؟

- للأسف أنا مضطرة لاحتمالك، ثم تضحك وتقلده أعزائي المستمعين، لقد تسببت في ذعرٍ للناس في منتصف الليل!

يقول مهاب ساخرًا في توتر مصطنع:

- ها قد أوقعتم بي! الحقيقة أن سماجتي هذه هي ما صنعت شهرة برنامج القديم، على أي حال اعتبروني مثل الحرنكش، في البداية تظنه طماطم ثم تكتشف أنك قد ظلمته.

تضحك سهير مُشاكسة:

- لا أحب الحرنكش في النهاية هو والطماطم سواء، ولكن دعنا من المزاح الآن.

- بالتأكيد، أتعشم أن لا تشعري بالضيق من مطالبة المستمعين بوجود دكتور رفعت إسماعيل.

تقول سهير ببراءة وكأن ذكر الدكتور رفعت أعادها لذكريات شجية:

- أنا شخصيًا أتمنى عودة دكتور رفعت وسماع صوته مجددًا، بل أتمنى الجلوس معه والتعلم منه، ولكن لا حيلة.. لقد توفي الدكتور رفعت منذ سنوات، ولا يستطيع أحد احتلال مكانته أبدًا.

يقول مهاب في وقار:

- ليتغمده الله بالرحمة، دعيني أضيف أيضًا أن لا أحد يستطيع مِلء مكان أستاذنا الإعلامي شريف السعدني.

ثم يعود مهاب لطبيعته المرحة ويكمل:

- بعض من مستمعينا قد طلبوا تحضير روح دكتور رفعت، أتظنين هذا ممكنًا؟

تضحك سهير هاتفةً:

- أنت ثانيةً؟ أنت مثل الأطفال تتعلق بأي شيء مخيف، لو أن هناك شيئًا يدعي تحضير أرواح حقًا، فأنا لا أوافق أبدًا على استدعاء روح هذا الرجل الطيب وتكديره بصحبتنا. أنا متأكدة من سعادته بالفرار من هنا، تخيل وجوده في ضيافتك يا مهاب تخيل رد فعله على سماجتك

خلال نصف دقيقة؟

- ما زال الخطأ خطئي إذن! وأنا من سيتسبب في تكدير دكتور رفعت ودفعه للفرار؟

ثم يضحك مُردفًا:

- على أي حال نحن نعد بإرعابكم، ونعد بالاستماع لأرائكم لأنها سند البرنامج ودعمه الحقيقي.

أخبريني يا أستاذة سهير، سمعت بوقوع حادثة غريبة لك الأسبوع الماضي، اِحكِ لنا.

تبتسم سهير وتستعيد خفتها المعهودة لتحتمي بها من قلقها:

- لن تصدق ما حدث أثناء عودتي من الاستوديو، الحقيقة أنني أفكر أن لا أستخدم كاميرا مرة أخري! كنت أنا ورجاء في انتظار سيارة أجرة، فقلت لها «ريجو» دعينا نلتقط لنا صورة أمام البناية، صورة ليلية لنا دهر لم نخرج معًا ليلا، أخرجت الهاتف والتقطت الصورة، ثم ماذا وجدت؟

مهاب: ماذا وجدت؟ شريف السعدني؟

سهير: انتظِر دعني أريك..

يهتف مهاب في غيظ ضاحك:

- لقد أخبرتك من قبل، ممنوع استخدام الهاتف داخل الاستوديو.

- ولم؟ أنت تستعمل «تابليت» لقراءة رسائل فيسبوك، ثم إنني لن أهاتف أسامة فهو يسمعني من يوتيوب، انظر إلى الصورة!

يشهق مُهاب ويصفر هاتفًا:

- ما هذا بالخلف، أليس هذا ما حكى عنه الأستاذ نادر بالحلقة الماضية؟ أليس هذا جذر الشجرة المحترق الذي أراد اختطافه في

طفولته؟

تضحك سهير وتقول:

- كما تقول ابنتي رانيا «إتزاولنا»! كنت على وشك إلقاء الهاتف لكنني نظرت خلفي فوجدت فروع اللبلاب الجافة على سور حديقة المبنى المجاور، ولم أخبر رجاء بشأن الصورة إلا لاحقًا كي لا تخاف.

مهاب: لم أكن أعرف بوجود نبات لبلاب على سور حديقة المبنى المجاور، أتظنين أنه قد يكون الجذر المحترق القديم وقد تنكر في شكل لبلاب عندما صورتيه؟

تبتسم سهير في قلق يتخفى خلف مرحها:

- ماذا؟ لا تدعني أذهب الآن للتحقق من وجوده!

- بعد الحلقة سنذهب كلنا للتحقق!

يضحك مهاب ثم يضيف في جدية:

- أنا لا أدري حتى الآن هل رأيت الحلم الذي حلمته والدة نادر أم لا. وصف الحلم مألوف للغاية.

- لقد أثارت تلك المكالمة قلقًا.

- حقًا، لقد وصلنا كم هائل من الرسائل من أشخاص يقولون أنهم أو اقاربهم من الأطفال والذين كانوا في الماضي يستمعون لبرنامج بعد منتصف الليل قد واجهوا حوادث شديدة الغرابة طوال حياتهم، من ساعتها انقلبت حياة الكثير من الأطفال. هل تعتقدي بالفعل في قدرة الرعب على التسلل للبيوت والوصول للأطفال؟

- شيء وارد، والوارد أيضًا أن تعرض الأطفال لمحتوى مرعب كهذا قد يؤثر في تركيبتهم النفسية، وبالتالي التأثير في قراراتهم وتشويشها، فيظهر أن سبب دمار مستقبلهم هو البرنامج.

- لا لا صدفة غير محتملة.

- لا مكان للصدفة هنا، لو أحصينا الأطفال الذين استمعوا للبرنامج والآخرين الذين لم يفعلوا، لوجدنا أن أثر البرنامج لا يذكر مقارنة بالتربية الخاطئة، والتي تدمر نفسية الأطفال وتفسد مستقبل حياتهم.

- أنا مُصر على وجود خطب ما بالبرنامج، وذلك لسبب بسيط سنعرفه عند الاستماع لمكالمة اليوم، دعوني أذكركم أعزائي المرعبين والمرتعبين، يمكنكم التواجد معنا على الهواء، فقط اتركوا ملخص قصتكم ورقم هاتفكم على رسائل الصفحة فيسبوك والموجودة في –ديسكريبشن- القناة، وسنختار رسالة ونتصل بصاحبها.

فاصل ونعود سريعًا.

خلال الثوان القليلة التي يُبث خلالها الفاصل، يُلقي مهاب وسهير نظرة على تعليقات المستمعين ويبتسمان في انتصار. لقد نجحا في استمالتهم!

يعود البث مُجددًا، فيعود البِشر لوجهيهما..

- ها قد عدنا أيها المرعبين والمرتعبين، ألن نقرأ رسالة من بريد صفحة فيسبوك، ونستمع لرأى ضيفتنا الدائمة، المصورة الفوتوغرافية وصاحبة الكتاب الأكثر مبيعًا (أشباح الموالد).

معنا رسالة من عمر رشيد، أنقلها لكم كما هي: مرحبًا أنا عمر رشيد ٢٤ عامًا، مدرس علوم للمرحلة الابتدائية، نحن من قاطني مدينة دمنهور منذ زمن، إلا أننا في الإجازات كنا نذهب لجدي في قرية لن أذكر اسمها لشهرة جدي فيها، أذكر اجتماعي وأبناء عمي صيفًا، ولهونا في الحقول، وشيَ الذرة، وغاراتنا على المطبخ للسطو على اللبن المدخر لصنع الجبن، كان مرحنا في شهور الصيف الثلاثة يوازي مرحنا طوال العام.

دعني أصف لك جدي رحمه الله، كان قد تخطى الستين حينئذ، وكان

طويل القامة، ربما متخطيًا المترين طولًا، ذو قوة لا يملكها شاب.

تقاطعه سهير:

- يا لها من ذكريات! ذكرني أن أحكي لك عن أول صورة التقطتها في بيت عمي الكبير، كانت في الريف أيضًا، صورة لزوجة عمي.. أكمل..

- يقول عمر لا أذكر أنني قد رأيت جدي مريضًا من قبل، بل لقد توفاه الله وهو بكامل صحته، أذكر يومًا كان سني نحو ١٢ عامًا يوم جاء جدي يجر خلفه حمارًا كبيرًا، لم يكن الحمار مملوكًا لجدي إلا أنه طلب منا أن نحمل هذا الحمار بما لا طاقة له به، لا أدري ما سر غضبة جدي على الحمار، إلا أنه كان يساعدنا في تحميله بروث البهائم، والحجارة، وكل ما تقع عليه عيوننا، كان جدي عابسًا طوال هذا الوقت كأنه مضطر لإيقاع الأذي بذلك الحمار، أنا شخصيًا شعرت بأن ما نفعله لا يجوز، لكنني وأبناء عمي كنا أطفالًا، ولم نشعر بتأنيب الضمير لما نفعل بل كان الأمر مسليًا حينها.

- هذا حقيقي، حب الاستكشاف عند الأطفال يا مهاب يدفعهم لقص أجنحة أبي المقص مثلا ليروا ما سيفعله بعد أن استحال إلى دودة .

- ذات مرة يا أستاذة قمت بقص شوارب صرصور! وكان يتخبط ولا يرى، لم أدرِ ما العلاقة بين الشوارب والرؤية، وكنت أخشى أن يحلق أبي شاربيه فيصاب بالعمي!

يضحكان.. ثم يُكمل مهاب الرسالة:

- نعود لرسالتنا، استمر أبناء عمي في التحميل على ظهر الحمار، كنت أقف بعيدًا حين لاحظت ما يشبه شوكة نخل مغروسة في ظهر الحمار، لما حاولت إزالة تلك الشوكة صفعني جدي على وجهي صفعة لن أنساها ما حييت، لم يكن جدي غاضبًا بقدر ما كان خائفًا عليَ، قال لي إياك أن تلمسها فيتحرر وساعتها لن نأمن العواقب، من خوفي من نظراته لم أسأل، بعد ساعة أرهق الحمار حتى لم يكن يقوى على

الوقوف، حينها فقط أنزل جدي الأحمال عن ظهره، ناظرًا إليه نظرةً قادرةً قوية وقال لا تدعني أرى وجهك هنا ثانيةً، إياك أن تعترض طريقي أو طريق أيًا من أبنائي.

حينها فر الحمار كالبرق.. ما كانت ماهية هذا الحمار، وما الشوكة في ظهره؟ الله أعلم.

تسترجع سهير الأساطير الريفية التي سمعتها من أقارب أبيها في أرياف طنطا وتقول:

- أمر الشوكة هذا شهير جدًا، يقولون لو ظهر لك جان متجسدًا في هيئة حيوان أو حتى إنسان، واستطعت غرس شوكة في جسمه فلن يستطيع الهرب، أو حتى العودة لهيئته الأصلية، يبدو أن هذا الحمار قد أساء الأدب مع جدك!

- جميل.. يبدو أن جده يمثل طاردي الأرواح الشريرة في الأفلام، شخصية سينيمائية هذا الجد.

ما زلنا مع الرسالة، يقول عمر: بعد عامين كنت وحدي عند جدي، أساعده في رص أجولة القمح لبيعها في اليوم التالي، كان الليل قد حل عندما أنهينا هذا العمل، وكنا في انتظار الخفير ليأتي للحراسة إلا أننا علمنا بمرضه، فطلبت من جدي أن يذهب هو للنوم وسأبقى أنا، نظر جدي للقمح طويلًا ثم قال لي: «اذهب واحضر لي بعض الزلط»، «لمَ؟» لم يرد، جمعت له نحوًا من عشرين من الزلط، فوضعهم أمامه وظل يقرأ عليهم كلمات لا أدري ما هي، لم يدعني المسهم مجددًا وقام بنفسه برصهم في دائرة حول أجولة القمح، وطلب مني أن أذهب للنوم وقال: «مهما سمعت لا تخرج ولا تنظر خارج النافذة».

- هنا الغرابة يا مُهاب.. ما هذا، ألهذا الرجل أعوان من الجن؟

- يبدو كذلك، أنا أشعر بالرعب من قبل أن أعرف ماذا سيحدث، يكمل عمر: قبيل الفجر سمعت رجال يتحدثون، يستغيثون، وينادون جدي،

خارج الغرفة كان جدي نائمًا على أريكة بجوار باب المنزل، تسللت بهدوء نحو الباب، وما إن لمست المفتاح، وجدت جدي واقفًا خلفي ويقول: «لا تعرض نفسك للأذى عد لنومك»، اصطكت ركبتاي وأنا عائد لغرفتي، لم أستطع النوم، وما أن بزغ النهار، وسمعت صوت جدي يفتح باب المنزل، حتى انطلقت لأرى ما كان يحدث، وجدت نحو ست رجال جالسين بجانب أجولة القمح، وعلى وجوههم رعب هائل، ما أن رأوا جدي حتى اندفعوا نحوه لكنهم نظروا لدائرة الزلط برعب وتوقفوا، وقالوا لجدي السماح يا حاج فلان نتوسل إليك دع رجالك يتركوننا نرحل، سار جدي بهدوء نحو زلطاته وجمعها، نظر اللصوص إلي يدي جدي ورأوا الزلط في ذهول وكان أحدهم ينوح كامرأة! فطوال الليل كانوا يرون الزلط حرسًا مسلحًا يمنعهم من الحركة! لجدي حكايات تملأ كتبًا لكني لم أرَ سوى هاتين الحكايتين، فليرحمه الله.

- هذه الحكايا تنتشر في الريف يا مهاب، كنت أسمعها فيما مضى، وسمعتها بشكل أكثر في الموالد، حكايات عن ناس كشف عنها حجاب الغيب، آخرون يُسخرون جنًا صالحًا، أناس ذوي كرامة تحرسهم ملائكة، الحكايات ليست غريبة، لكن ما يحدث هو الغريب ويظل بلا تفسير.

- لم لا تحكي لنا عن صورة زوجة عمك، أما زالت معك؟

تغمض سهير عينيها وتجيب:

- نعم، موجودة بالكتاب.. في ذلك الوقت كانت الكاميرات من طراز (ياشكا) هي السائدة، وكان والدي يملك واحدة، أعطاني إياها لالتقاط صور للإجازة عند عمي، كان عمي يقطن قرية قرب طنطا، له زوجة بشوشة تدعى مريم، يقولون أنني أشبهها في الطباع، كنا عام٨٧، وكانت سني ١٥ عامًا، كانت الحاجة مريم تجلس أمام الفرن تسوي الأرز والبطاطس، كانت القطط تحوم حولها، وأنا أزجرهم وأصورهم أثناء جريهم ومحاولة اختطاف شيء من الطعام، لم تكن زوجة عمي تلقي بالًا لما يحدث حولها مني ومن القطط، لكن فجأة نظرت خلفي

وعبست، ثم خلعت حذائها وألقت به على ما ورائي وهي تسب شيئًا لا أراه، عنما سألتها قالت: «أولاد الملاعيين أول أمس سرقوا اللحم من قلب الأرز وتركتهم، ومن قبل قطع الدجاج من قلب الحساء، ولم أهتم وقلت لابأس فإنهم مخلوقات تسبح الله ولكن... لكن...».

احمر وجهها ولم تخبرني لكن ماذا، أخبرتني أن أذهب للمنزل ولا أخرج.

- ربما تقصد القطط؟

- هذا ما ظننته أيضًا.. في اليوم التالي كنا سائرتين بعد المغرب، لم يكن الليل قد حل بعد، وجدنا سيدة طويلة تحت شجرة، والشمس تغرب من خلفها ووجهها غارق في الظلال، ألقت الحاجة مريم السلام وهي تمد يدها لتسلم على السيدة، سحبت يدها بسرعة وهي تنظر لوجهها بتدقيق، نظرت أنا أيضًا للوجه لأجده وجهًا حالك السواد ونقطتيين حمراوين تلمعان وتتحركان مكان العينين، تجمدت من الخوف إلا أن زوجة عمي ضحكت ووكزت السيدة في صدرها وهي تقول: «أهو أنت (يقطعَك)» بصيغة المذكر، ثم سحبتني من يدي ومشينا بكل هدوء.

يضحك مهاب ويهتف:

- ماذا؟ وكزت العفريت؟ أهم معتادين على هذا النوع من المزاح؟

تضحك سهير بدورها وتجيب:

- هناك تصالح رهيب مع هذه الكيانات في الريف، إنهم معتادون عليها كما يعتادون الحيوانات، لما عدت لداري وقمت بتحميض الصور، ومن بينها صور زوجة عمي وحولها القطط، قبلما تسب وتلقي الحذاء على ما خلفي، كانت هناك صورة لا تظهر هي فيها بل الاتجاه الذى تنظر نحوه، كان هناك قط صغير ومعلق فوقه ظل أسود، راكع على ركبتيه في وضعية هجوم، كأنه سيهاجمني!

- لو لم تنتبه الحاجة مريم، ما كان سيحدث لك؟

- لا أستطيع أن أفكر!

يتقطع البث خلال الفاصل، فتخفي سهير فمها بكفها وتضحك، يتساءل مُهاب عن السبب، فتقول سريعًا:

- بمجرد ما أذكر مريم، زوجة عمي، أشعر بصعوبة بالغة في التوقف عن سرد حكاياتها. سأحكي لك بعد الحلقة.

ينتهي الفاصل، ويعود مهاب للحديث:

- عدنا، معنا مكالمة تعد بإثارة رعبكم، مكالمة من أحد مستمعي البرنامج القديم والذي كان طفلًا حينها! مساء الخير يا سيدي.. عرفنا بنفسك.

صوت رجل ستيني وقور وثابت يقول:

- مساء النور. أنا مراد.. زوجتي هي من بعثت الرسالة على فيسبوك، فأنا كفيف.

- أهلا وسهلاً يا سيد مراد.

تضيف سهير مُرحبة:

- أهلًا بك، أكنت تستمع للبرنامج في الماضي؟

- نعم. لقد ولدت كفيفًا، ولم يكن هناك وسيط مشترك بيني وبين المبصرين يمكنني من شرح طريقة استكشافي للحياة، بالعموم لم أشعر أن شيئًا ينقصني، أمي – رحمها الله – كانت دائمًا ما تتحدث إلي، وتحكي لي، بل وتقرأ لي لم تكن تصمت للحظة، كأنها كانت ترغب في أن تأتي بالعالم كله أمامي، كانت تصف لي كل شيء لكن الوصف لم يكن ليمثل لي شيئًا، فعندما تصف لي الكرة بأنها مستديرة فلن يسعني فهم الاستدارة والتكور، بدون تحسس كرة حقيقية، ولكن هناك الكثير من الأشياء التي لا يسعني لمسها، لذا فلا توجد طريقة أعرف بها ماهية

السحاب أو الألوان مثلًا.

يقول مهاب:

- نعم بالتأكيد، فأنت تعيش وفق قوانين خاصة.

- بالضبط. لذا كنت دومًا ملازمًا للراديو.. ساعة لقلبك.. كلمتين وبس.. أبلة فضيلة.. ربما لم تكن كل تلك الأشياء ضمن دائرة اهتمام طفل صغير إلا أن دفء الأصوات كان يؤنس وحدتي، أحيانًا كثيرة كان يجافيني النوم، فأظل بجانب الراديو بصحبة جبر.

تسأل سهير:

- أهو شقيقك جبر؟

- لا، جبر صديقي، لقد انشغلت والدتي منذ إنجابها أشقائي فلم يبقَ معي سوى الراديو وجبر. كنت في العاشرة حين استمعت لأولى حلقات البرنامج، في أكتوبر ١٩٦٩ وكان جبر في ضعف عمري حينها، كان جبر يحكي لي عن أشياء لم تحكها لي أمي ولم أعرفها من الراديو، حكايات يحكيها الفتية سرًا، أنتم تفهمون بالطبع.

تقاطعة سهير في تعجب:

- أعتقد أن علاقتك بجبر هذا لم تكن صحية تمامًا مع فارق سن كهذا، كما أنه كان يحدثك عن أمورٍ لا يصح أن يتحدث فيها شخص بالغ مع طفل.

حينها كانت علاقتي بجبر، بوابة لعالم آخر لا أدري عنه شيئًا، أخبركم بما هو أنكى لم يعلم أحد بمكوث جبر معي ليلًا، لا أمي ولا أبي ولا أشقائي، كنت أسمح لجبر بدخول البيت دون علم أحد.

- يا للهول، وكيف تعرفت على هذا الجبر من البداية؟

- سأحكي لك يا مهاب، ذات يوم كنت على سطح البيت أستمع للراديو، وأنعم بدفء الشمس. كان جبر هناك مع طائرة ورقية يطيرها كما قال

لي، للمرة الأولي أعرف أنه جارنا في البناية، انساب بيننا الحديث ولم نفترق إلا وقد صرنا أصدقاء، لقد كان عقلي سابقًا لسني وأحب أحاديث الكبار.

- لقد قلت أن حكايتك لها علاقة ببرنامج بعد منتصف الليل، أليس كذلك؟

- الصبر فضيلة يا سيدي، أنا أشرح لكم خلفية الأمر ليس إلا.

لقد سمعت أولى الحلقات بصحبة جبر، ولم أخف بل بقينا للصباح نحكي عن أمور الفتية إياها، كان جبر يحكي عن فتاة يحبها ويستطرد واصفًا لها، بالطبع لم أكن قادرًا على تخيل أشياء لا مرجع لها عندي، هنا فقط تمنيت لو أنني كنت أرى، وأشعر بما يشعر هو به لما يرى، لقد سخط من أقدار الله، رغم حب جبر لي إلا أنه دومًا ما أشعرني بما ينقصني، أتدري يا بني.. أعني يا سيد مهاب..

- أحب قولك يا بني، من فضلك أكمل يا والدي.

- في الماضي لم يدرِ الناس في مصر الكثير عما يقبع خارجها، وكانوا يعيشون في سعادة، ولما اطّلعوا على الخارج عبر الأفلام بدأوا في المقارنة، أشكال النساء، الشوارع، الأعمال وبعد أن قارنوا شعروا بالنقص، تحكي لي زوجتي عن فيسبوك والانستجرام وأنا أحب المعرفة، لم يعد الشباب قانع بمعيشته ولا حتى شكله، مهما كان ثريًا، دومًا ينظر لما ليس في يده هذه طبائع الأمور يا ولدي.

تقول سهير مُتفهمة:

- طبعًا، زامر الحي لا يطرب.

- نعم، أنار الله بصيرتك، المهم في تلك الليلة نمت بعد ذهاب جبر، ورأيت حلمًا غريبًا، أنا لا أحلم مثل المبصرين فلا أرى أناسًا أعرفهم مثلًا، أو أشياء رأيتها في صحوي، لكن أرى تفسيرات لعقلي توضح فكرتي عن الأشياء، ولا توجد طريقة تنبئني بأن تلك التفسيرات تماثل

الحقيقة أم لا، لكن حلم تلك الليلة كان مختلفًا وربما كان ذلك سبب خوفي منه.

تساءلت سهير:

- تبدو مثقفًا يا سيدي، ماذا تعمل؟

- أرجو إعفائي من ذكر التفاصيل، لقد حاولت بكل الطرق بأن ألم بكل شيء عن العمي، لم لا أرى؟ وما الفارق بيني وبين غيري؟ وساعدني في ذلك زوجتي كثيرًا جدًا، وهي الوحيدة التي تعرف حكايتي، لم أحكِ ذلك الحلم إلا أن جبر سألني في اليوم التالي لو كنت قد رأيت حلمًا غريبًا، وحكى لي عن حلم زوجة السيد شريف السعدني، جذر الشجرة والنار، ربما يكونا نفس الحلم، ولكن لا سبيل لأعرف.

بعدها بدأت أحلامي تتغير، بالطبع انا أعرف ملمس الشعر والبشرة والعيون، وفكرة ملامح الوجه. وبدأت أحلم بتجسيد مرئي للملامح، رأيت أشخاصًا حاولت وصفهم لجبر، وعرفت لأول مرة أنني أرى أشخاصًا حقيقيون! خلال أسبوع كنت أرى مثل المبصرين لكن فقط في الأحلام، كل ما كان يحكيه جبر كنت أراه وأعيشه، فقط في الأحلام، صرت نائمًا طوال اليوم فحياتي الحقيقية ليست في صحوي، أنا نائم لكنني مستيقظ في الأحلام، هل تفهمون ما أعني؟

تجيب سهير:

- أفهمك تمامًا.. ابني وابنتي مثلًا يعيشان معنا وليسا معنا، حياتهم كلها على الإنترنت، حياة زائفة لكن بالنسبة لهم حقيقية تمامًا، وبالطبع أحاول إيقاظهم طيلة الوقت.

كنت كلما أستمع للبرنامج تزداد قدرتي على تجسيد الأحلام، ازدادت التفاصيل، عام كامل مر وأنا منفصل تمامًا عن الواقع لم ينغص عليّ سوى والدي الذين حفيت قدميهما وهما يعرضاني على الأطباء، ولمّا يأسا لجآ لدجال.

لو نظرت للأمر بحياد لوجدت طفلًا طبيعيًا بدأ ينام طوال اليوم، فلا لوم عليهما إن طرقا كل الأبواب حتى باب الدجل.

عام قد مر وتوقف البرنامج.. واختفى جبر .. ومعه الأحلام، حتى أحلامي القديمة اختفت وحل محلها لا شيء، إحساس مخيف بالعدم.. أنام وأدرك أنني نائم لكن لا أشعر بوجودي لا في عالم الواقع ولا في عالم الأحلام، تخيلا إنسانًا حيًا قد مات فجأة وصار مجرد شبحٍ لا يرى حوله سوى الخواء.

- إحساس مخيف، وأين ذهب جبر يا والدي؟

- اختفى بلا أثر، وفرح والدي بكرامات الدجال الذي نجح في إيقاظي، بينما كنت أنا أموت وأنا أبحث عن جبر في شقق البناية، لكن لم يوجد أحد يدعى جبر، ولم أستطع وصفه رغم رؤيتي له في أحلامي، كادت أمي تُجن شفقة علي، وفي نفس الوقت تتمني لو تجلدني كوني سمحت لرجل غريب بدخول المنزل وهم نيام، ظلت تستجوبني وتحاول معرفة شكل جبر، جعلتني أتحسس شعر إخوتي وتسألني إن كان يشبه شعر جبر، مَن مِن إخوتي له أنف مماثل لجبر، ماذا عن أطوالهم؟ حاولت الوصف بلا جدوى، وفي النهاية أشرت إلي جانبي ظهري وقلت لها، لديه شيئان هنا لا نملك مثلهما، ولكن الأشخاص الذين أراهم في الأحلام لديهم مثلهما، ثم أشرت لمؤخرة ظهري وقلت لها وهنا لديه ما يشبه ضفيرة أختي.

صاحت سهير:

- يا إلهي لديه جناحان وذيل؟

أضاف مهاب متعجبًا:

- والناس في أحلامه أيضًا لهم ذيول وأجنحة!

أدركت حينها فقط من يكون جبر، لكني لم أخف، ولِم أخاف وقد منحني جبر السعادة، ونعمة البصر، حتى لو كان البصر في عالم الأحلام

فقط، فقد كنت سعيدًا ولا أشعر بنقص عن الآخرين.

هل أدركت الآن يا سيدة سهير سر تمسك أولادك بهواتفهم؟

- أنا أفهمهم كما أفهم ما تشعر به، لكن لا يمكنني أن أدعهم يعيشون في وهم، إذا انقطع الاتصال بالإنترنت تجدهم متخبطين ومعتلي المزاج مثل المدمنين إذا منعتهم جرعة المخدر، ابنتي رانيا لا تفطر من غير أن تلتقط صورًا لإفطارها، ثم تقضي ساعة في تعديل إضاءة وخلفيات صور التوست والمربي، ثم تكتشف أنها جائعة فتلتهم شطائر البيض مع البسطرمة! الوهم لا يملأ البطون يا سيد مراد.

- المهم، أتت أمي بدجالٍ آخر، ظل الرجل يقرأ عليَّ تعاويذه، ثم قام بضربي حتى يأس من حالي فذهب، أشفقتُ على أمي فأخبرتها بأن جبر كان وهمًا في عقلي نبت من استماعي لبرنامج الرعب ليلا.

ويوم ما استراحت أمي واطمئنت عاد جبر، قال لي أنه من الممكن أن يعود، ومعه تعود أحلامي، ليس هذا فقط بل يمكنني أن أرى العالم الحقيقي هذه المرة وليس عالم الكايانات الذي أتى منه، كل ما عليَّ هو أن أقول نعم، أقول نعم فيصير هو عيناي، نعم فيصير صوتي، نعم فيصير سمعي، أقول نعم لكل شيء بدون جدال، نعم يا جبر..

تسأل سهير في قلق رغم معرفتها الإجابة:

- وهل قلتها؟

- قلتها، صرت أرى.. ليس مثلما ترون.. صرت أرى كل الأماكن في نفس الوقت، صرت أرى المستقبل وأرى عالم جبر، جبر الذي صار يعرف فيما أفكر وماذا أريد، ويحضره لي لكنني لم أعد سعيدًا، كأنما أكلت طعام الدنيا كله مرة واحدة فلم أعد أشعر بطعم أي شيء، أتفهمان؟ هذا ما آل إليه حالي وجبر لم يعد راغبًا في الرحيل، وصار يتجسس على أفكاري ومشاعري ويمنعني من الفرار، حاولت الانتحار مرات أكثر من أن أستطيع أن أذكر وفي كل مرة كنت أغيب عن الوعي قبل أن

أطعن نفسي أو أتجرع السم، وصرت ألعن يوم قلت فيه نعم وتركت جبر يدخل حياتي.

قال مهاب في قلق وتأثر:

- شيء غريب يا والدي، إن ما تقوله يبدو لي مألوفًا ولا أدري لماذا؟

- كلنا عميان يا ولدي بشكلٍ ما، وعندما ظننا أننا نبصر، لم تكن عيوننا هي التي أبصرت، بل عيون جبر، حماكم الله يا ولدي، ولكن هل ما حدث معي له علاقة ببرنامج بعد منتصف الليل؟ لا أدري، ولكن الحلم الذي حكاه نادر هو ما مثل رابطًا ما للأحداث، لم يفهمني أو يؤازرني أحد إلا زوجتي، لم يكن جبر ندًا لها، ذكرتني بزوجة عمك يا سيدة سهير، جبر ما زال موجودًا معي، لكن زوجتي له بالمرصاد تمنحني دعمًا بلا حدود وحياة أحبها، يبدو أنني أطلت الحديث.. عذرا.

قالت سهير :

- أبدًا لقد أسعدتنا بالفعل.

- في رعاية الله.

تنتهي المكالمة، فيتساءل مهاب:

- حكاية مقبضة بالفعل، من عساه يكون جبر؟ شيطان؟

- ما حكاه مراد يشبه حكاية إغواء الشيطان للإنسان، يشير الشيطان لابن آدم على شيء بعيد، يذيقه هذا الشيء لمرة، ثم يختفي، وابن آدم يريد المزيد فيبحث عن أي سبيل للوصول لذلك الشيء حتى لو باع روحه للشيطان.

- لكن مراد لم يؤذ أحدًا.

- بل آذي نفسه بتعرضه للخداع، لا بأس بمحاولة تحسين الأوضاع، ولكن ليس عن طريق الأوهام، لقد آذى نفسه وأنا متعاطفة معه بشدة..

ولكن أتدري؟ الزوجة الشجاعة رزق.

يضحكان، ثم يردف مهاب مُنهيًا الحلقة:

- فعلًا يبدو أن الطريقة الوحيدة لمواجهة جبر، هي أن تحيا حياة حقيقية. حتى الخميس القادم، نتمنى لكم الرعب والهلع حتى الصباح الباكر!

***

شخصيًا، أعتبرُ تلك الحلقة هي أولى خطوات سهير العزيزة في المدرسة. لم -ولن- أنجب، لكنني أشعر أن سهير ابنتي وإن كانت تكبُرني. أستمتع وأنا أراقب يومها الأول في حياتها الحقيقة، التنمر، اليأس، التوتر.. يومٌ أول مر به أغلبنا، لكننا كنا أطفالًا وقتها، ولم نكن مثلها، نولد من جديد ونحن نقترب من سن الخمسين.

الحلقة الثانية أعتبرها يومه الأول الحقيقي، يوم النصر واكتساب الصداقات، يوم استيعاب أول درس وإجابة أول سؤال، والحصول على نجمة ورقية تلصقها على جبينها في فخر لا على كُراسها.

سهير ابنة محافظتي، وقد أمضت أعوامًا طويلة من حياتها وسط البسطاء والعامة، وتعرف جيدًا ما يتحدثون عنه، وتؤمن بإيمانهم به. لكنها بعد غير واثقة من ذلك الإيمان، وتتحدث وهي منفصلة عن الأحداث، خائفة من التصديق ومن ثم التورط فيما تخشاه، وتعلم أنه حقيقي ومُرعب.

لكنني فخور بها، وقد رأيت في رحلتي للبحث عن سحرَة سيوة، من يُسخِّرون الشياطين بطريقة مماثلة لأمر شوكة جريد النخل التي ذُكرت في الرسالة. وإليك يا صاحب الحكاية أقول، جدك لم يكن كما ظننتم،

ولم يكن ساحرًا ولا مُخاويًا كذلك. سأحكي كل شيء عنه والحاجة مريم وعن الأشخاص أمثالهما في الوقت المناسب.

أما عن حكاية جبر، فالسيد مراد لم يكن كاذبًا ولا مُدعيًا. وأنا أعرف من يسمونه جبر جيدًا، وأعرف أعوانه وأعرف رؤسائه، ولا زال اسمه يزين قائمة الصيد لدي، وسأصل له في القريب، أو سأتخطاه لمن هم أعلى. لن أسمح لأمثاله بالتسلل إلى الضعفاء وخداعهم، لن أسمح لهم بالتطور أكثر، أمثالهم ما كان لهم العيش إلا في العصور المظلمة الغابرة، وسينتصر عليهم العلم الذين يسعون إلى الاستيلاء عليه هو الآخر، وسيمحق لاشين جبر وأمثاله لا محالة.

لكن المهم في كل هذا، كنت فخورًا بصغيرتي سهير، وسأعطيها نجمة خماسية جميلة تتزين بها حين يأتي موعد اللقاء.

***

تدثرت سهير في شالها وهي تخرج من المصعد مع مهاب، إلى الليل البارد في زحام شارع الهرم المستمر. لم تأت رجاء معها ولم تخبرها بالسبب، ولم تسأل سهير. فكلتيهما تعرف أن شيئًا غير متوقع يحدث، ولا تستطيع أي منهن أن تبوح بمخاوفها للأخرى.

أنهت سهير مكالمة سريعة لأسامة، ثم لرجاء تطلب منها تسخين العشاء حتى تصل. ووقفت مع مهاب في انتظار السيارة الأجرة التي طلبتها.

- سأوصلك يا أستاذة ثم أعود.

- لا يا مهاب، المنيل قريبة. لا تقلق علي.

- ربنا عليكِ أنتِ أن تقلقي عليَّ.

يضحك مهاب، وتصل السيارة، فتدخل سهير ويجلس مهاب جوار السائق، ثم يلتفت لها ويسأل في فضول:

- ما رأيك في قصة جبر هذه؟ رغم أنها مرعبة لكن ثمة تفاصيل لا أصدقها. مثلا.. مسألة أن يكون للشيطان جناحان وذيل.. تصور غربي بعض الشيء، أليس كذلك؟ حتى تصور الشياطين كمخلوقات حمراء اللون ذوات حوافر غير مقنع بالنسبة لي.

ينظر السائق بجانب عينيه إليهما، ويخفض صوت «الكاسيت» قليلًا دون أن يلاحظا. تقول سهير وهي تتدثر أكثر بالشال:

- الشياطين يا مهاب كائنات غير مادية، ليس لها شكل مادي، وحين تتجسد، فهي تختار أكثر الأشكال إغراءً أو إرعابًا لعقل الذين يهاجمونهم. يقولون أن الشياطين لا تتجسد، بل تُسقط صورة مفهومة عقل الضحية، تستطيع الضحية استيعابها وفهمها. أتفهمني؟ أعني أننا لو رأينا –أنا وأنت- شيطانًا، فربما لا يراه شخص ثالث يعبر جوارنا. وما سأراه سيختلف عما ستراه قليلا. ربما نجتمع على تخيل واحد للشيطان على أنه ذو لون أحمر وبقرون فوق رأسه، لكن ربما تراه أنت يرتدي مئزرًا وأراه أنا مُغطى بالكامل بالشعر. أتفهمني؟

ابتلع السائق ريقه، وسأل مهاب:

- أفهم.. أتعنين أن الشياطين لا تتجسد مُطلقًا؟

- لا أحد يعرف على وجه الدقة. ثمة مشاهدات جماعية لتجسد شياطين على هيئة بشر أو صور تخيلية لملائكة أو صالحين، لكن علماء الشياطين يقولون أن هناك دائما شيئًا خاطئ أو ناقص في هذه التجسدات. غالبًا ما تكون شكل العينين الذي يكشف الخدعة فورًا. الشياطين غير قادرة على صنع جسد مادي كامل أبدًا. هكذا يقولون.

- ومن أين تعرفين كل تلك المعلومات يا أستاذة؟!

أجابت سهير شاردة:

- من هنا وهناك..

- وجبر؟

- شيطان.. هذا واضح.. والسيد مراد رأى لمحة من عالم الشياطين.. الأطفال والمراهقين هم الأكثر عُرضة للهجوم الشيطاني والاستحواذ، كونهم أضعف ويسهل التلاعب بهم وخداعهم.

تنحنح السائق وقال في أدب:

- لو سمحتما، سؤال..

قالت سهير:

- تفضل، وآمل ألا نكون قد أفزعناك..

- لقد أفزعتماني! لكن لدي سؤال.. هل أمر المس وظهور الشياطين للناس أمر شائع؟ أعني.. لو أنه بهذا الشيوع لصارت الدنيا فوضى!

أجابت سهير في هدوء:

- كلا يا سيدي، لا تخف. لن يتواصل معك شيء لا تُريد التواصل معه، ولم تلتفت لمحاولاته للفت نظرك إليه. الحاجز بيننا وبين عالم الكيانات الما ورائية قوي، لكن أحيانا بحماقات أو بدوافع من الطمع، نسمح لعبور كيانات غير مادية إلى عالمنا، ومن هنا تبدأ خطوات المس أو الاستحواذ الشيطاني.

سأل مهاب:

- وكيف للمرء أن يفتح طرقًا للتواصل من الأساس؟

- حسب ما قرأت، وما أجمع عليه علماء الروحانيات، أن اللعب بلوحات الويجا أو محاولات تحضير الأرواح، أو المكوث في أماكن مهجورة أو الالتفات والاهتمام الشديد بالغوامض، قد تؤدي إلى محاولة كيانات

غير مادية للتواصل مع البشر. شيء في هذه الممارسات يوهن الحاجز بيننا.. لكن...

- لكن؟

- لا شيء يا مُهاب..

شردت سهير مرة أخرى، فكما أن أغلب حالات المس والاستحواذ مزيفة أو ناتجة عن مرض نفسي أو عقلي، فثمة حالات غير مُبررة، ولم يفعل الممسوس شيئًا كي يُمس. ماذا فعل مراد كي يظهر له جبر؟ ماذا فعل شريف السعدني وزوجته كي يحاول كيان الرعب التواصل معهما؟ ما هي نقطة البداية؟

بالنسبة لها، كانت ثمة حلقة مفقودة..

***

أول ما فعله مهاب حين وصل لشقته، هو أنه نظر لنفسه في المرآة وقال:

- عمرو سيكون فخور بك يا مهاب..

ذهب ليغتسل بعد أن تأكد أن أغلب تعليقات المتابعين صارت إيجابية، لكن سعادته زالت مع ماء الاستحمام، فأغلق الصنبور وتذكر ما قالته سهير عن الاستحواذ ومحاولات التواصل.. ماذا فعل عمرو كي يموت على يد شيطان؟! حتى تلك اللحظة، ظل مهاب يحاول حجب ذكرى لحظة وفاة أخيه عنه، وحجب أسباب وفاته. فلطالما رفض أي تفسير لموته سوى التفسير العقلاني.. عمرو مَرِض ومات.

وظلت الحقيقة تتوارى خلف مجهودات مهاب ليكون شخصًا آخر.

حصلتُ على مجموع عالٍ في الثانوية العامة، ولم أرَ أسعد من أنيس يوم إعلان النتيجة، حتى أنه حملني وظل يصرخ في سعادة.

كانت سعادة أنيس متوقعة، وكذا سعادة أمي الطيبة، لكن الأغرب هي سعادة أبي، والذي ناداني وهو جالس يشرب الشاي أمام البيت. جلست على مسافة معقولة منه، كما اعتدت طيلة حياتي. ولكم كنت أتوق لو أرتمي في حضنه وأشعر بفخره الذي تبدى في عينيه لأول مرة يومها.

قال لي أن عليّ الالتحاق بالكلية التي أريد في أي محافظة بعيدة، وسيكون المال الذي أحتاج تحت أمري قبل أن أطلب. كنت أود الابتعاد فعلًا، والبدء من جديد مع أناس لا يعرفون لاشين الدجال ولا يصِمونني بذنوب لم أقترفها، لكنني كذلك كنت أود أن أبقى مع أنيس وأمي. عرضت عليه أن آخذ أمي معي، لكنه رفض دون إبداء أسباب، وله الحق. فطلبي لا محل له من الإعراب ولن تتحمل أمي العيش في المدينة الصاخبة التي ستزيدها وحدة على وحدتها. هي الآن تأتنس بأخي وبطيورها، وبأبي الذي لم أره يسيء معاملتها على الأقل علنًا.

كلما وَهن قلبي وطفَت محبة أبي على سطحه، شعرت بالذنب لمحبتي لدجال مؤذٍ، لرجل أساءت لي سيرته ودمرت حياتي. أدمَر أبي حياتي وحياة ضحاياه فقط؟ أم امتد أذاه لأبرياء آخرين لم يلجأوا لسحره؟

ما رأيته من أمر أبي لاحقًا أكد لي أنه مؤذٍ، وابتسامته كابتسامة التماسيح، تشي بالخطر أكثر مما تشي بالأمان.

سافر معي أنيس للقاهرة، وأجر لي شقة صغيرة جوار الجامعة حيث سأدرس الهندسة، واشترى لي كل ما أريد، ونفحني مالًا كي لا أحتاج إلى شيء. كلما نظرت إليه وجدت عينيه تلتمعان بالدموع، وتزين وجهه ابتسامة واسعة.

بالمال الذي تركه لي أنيس كي أشتري كتب الدراسة وأنفق منه على إقامتي، نزلت سور الأزبكية، وسألت عن تاجر بعينه، كان يتعامل معه الحاج رضوان صاحب المكتبة التي كنت أعمل بها. حين وصلت إليه،

اشتريت كل ما وجدت بجعبته من كتبًا أجنبية عن الخوارق، ومنها مجموعة كتب عتيقة لباحث روحاني إنجليزي يُدعى هاري برايس، عرفت من كتاباته مؤسسات لم أكن أتصور وجودها مثل: دائرة السحر، وهي منظمة إنجليزية لدارسة السحر كعلم. والمعمل الوطني للدراسات الروحانية في لندن. حتى أن جامعة لندن كانت تضم هيئة للتقصي الروحاني! في فهارس الكتب، وجدت علماء من كل أنحاء العالم قد شاركوا في هذه الأبحاث، ومنهم علماء عرب كذلك.

طلبت من التاجر أن يأتي لي بكل ما يستطيع من الكتب المماثلة، ولن أناقشه في سعرها أبدًا. بالطبع كان أمر الحصول على كتب كهذه أمر غاية في الصعوبة في عصر ما قبل الشراء الإليكتروني وشيوعه في مصر.

وهنا بدأت رحلتي الحقيقية، وعرفت أن ما يفعله أبي مَدونٌ في تلك الكتب، وكتب علم الشياطين الكاثوليكية. وعرفت أن في وسعي إخضاع أي شيء للفحص والدراسة طالما وضعت له مُسمى وتوصيف دقيق، وأن الغموض والرعب لا يعني سوى أنك جاهل بما تواجه لا أكثر.

لم تؤثر قراءاتي على دراستي، لكنها أثرت على القسم الذي اخترت التخصص فيه، وهو قسم الكهرباء. كنت متفوقًا، ولم أقدر قط على تخطي خوفي من رفض الناس لي. فضلت استرجاع صورة الفتاة التي أحبتها في مراهقتي على تكوين علاقات جديدة. هكذا، صار وقتي ملكي، أقسمه ما بين دراسة قوانين العالم المادي، وقوانين العالم الروحاني. وكنت أزور عائلتي مرة أو اثنين في الشهر، حتى توفي أبي في آخر سنة لي بالكلية.

يوم وفاته، اتصل بي أنيس ليخبرني بعد دفن أبي. ثرت عليه، لمَ تأخر ثلاثة أيام كاملة عن إخباري؟

سافرت إلي طنطا، وكانت وفاته في يوم شتوي ماطر. كانت الطرقات المؤدية لأرضنا خاوية، تخوض السيارة التي أركبها في طينها الذي

يلطخ زجاج النوافذ المُغلقة. السحب منخفضة مُسودة. جو أحبه، لكنه تسبب لي في انقباض يومها.

حين وصلت لمنزلنا، لم يكن أنيس هناك، ووجدت أمي متشحة بالسواد، تجلس في وجوم في حجرتها. عندما رآتني قامت وارتمت بين ذراعي وراحت تبكي. ثم، وكأنها تذكرت أمرًا، ابتعد عن صدري ودفعتني كي أخرج خارج المنزل.

لم أكن أفهم سر تصرفها، ظلت تطلب مني أن أرحل ولا أعود أبدًا، وحين صممتُ على البقاء، ركعت على الأرض وقبلت كفاي كي أرحل. جلست جوارها واحتضنتها. سألتها عن سبب طلبها، فقالت أن الذنب لن يُغفر، والديان لن يموت. قالت لي أن أنيس قد ضاع منها، وسيأخذون عليه عهد الدجالين. كنت قد عرفت من قراءاتي أن عهد السحر يورث من الأب للابن الأكبر وكهذا، وكنت أخشى اليوم الذي ربما يُعرض على أخي العهد فيه.

قالت أمي حين حكيت لها أنني أعرف كل شيء عن العهود السفلية أن أخي لم يعرف قط أن أبي ساحرٌ، وكان يظن له عهدًا مع الجن، ومن خلاله يستطيع طرد الشياطين من أجساد الممسوسين. رغم هلعي مما سيحدث لأخي، إلا أنني قد ارتحت حين ثبتت براءته. أخي لم يكن ملاكًا، لكن نصابًا أفضل بكثير من ساحر كافر. قالت لي أمي أن أخي كان يظن أبي مجنونًا أو ممسوسًا، وكان يفضل أن يُبعدني عنه حتى لا أنال من شره شيء.

سألتها عن مكان أنيس، قالت لي إنه في وسط أشجار البرتقال في نهاية الأرض.

كان الوقت يميل للمغيب، لكن السحب كانت تُخفي أي أثر للشمس. لوهلة وقفت وسط الحقل شاعرًا أنني في حلم. الظلال ليست في مكانها، الساعة حول معصمي تشير إلى الخامسة، بينما قلة الضوء تخبرني أننا في وقت لم يوجد من قبل على سطح الأرض، وكأنني في

كوكب آخر.

سرت نحو أشجار البرتقال التي يزيد طولها عن طولي، وتتشابك أغصانها من فوقي، والتي يمكن أن تضل خلالها بسهولة مع غياب الشمس، ونُدرة سيري في أحراشها. أنا لم أعمل في الحقل من قبل، وكل تلك المواضع بالنسبة لي أدغال موحشة.

ناديت على أنيس بصوت هامس، وكنت سأفزع لو علا صوتي. مشيتُ حتى لم أعد أدرك يميني من يساري. وسمعت همساتٍ داخل عقلي. من يهمس وماذا يقول؟!

همسات كتلك سمعتها حين شهدت ما يفعله أبي في المولد، همسات تكررت في المرات التي حضرتُ شعوذته. لهذا السبب علمت أن أبي ليس دجالًا كباقي الدجالين، وأنه يفعل شيئًا أبعد مايكون عن مساعدة الناس أو النصب عليهم.

وأنا في مسيرتي الموحشة، خطر لي أنه لو استطعت التفاوض مع الشياطين، لأخذت العهد بدلا عن أخي وتركته يحيا ويمدني بالحب والحماية. لا يهم وقتها ما سيطلبون مني فعله، فربما أجد منهم مهربًا، وربما تضيع دنياي وآخرتي فداء لأنيس.

همست لهم: أتسمعونني؟ لا أفهمكم.

قرأت أن محاولة الحديث مع الشياطين تغريهم بالحديث معك، والتلاعب بك، والكذب عليك. الشياطين كاذبة وهذه هي القاعدة الأولى التي تأكدتُ منها لاحقًا.

شعرت كأنما أشواك تتحسس عقلي، لا أستطيع أن أصف ذلك الشعور بدقة، وكأن ثمة ما يخدش جمجمتك من الداخل. رغمًا عني صرخت صرخة مكتومة، وشعرت بمن يمسك ذراعي ويجذبني. تعثرت وأدمت كفي الأشواك والأغصان الجافة على الأرض. كنت أعرف أنه أنيس، وقد سمعني أو شعر بي. حين توقفنا، وجدت نفسي في موضع نظيف

من الأغصان والأعشاب تحت الأشجار، وكانت التربة ندية مُقلّبة. وقف أنيس يلهث، وقد شحب وجهه وأحاطت عينيه الهالات الداكنة.

سألني في وهن:

- ماذا تظن أنك فاعلَ؟

- أنا أعرف كل شيء يا أنيس، ربما أعرف أكثر منك كذلك.

- تعرف؟

رأيت كفي أنيس ترتعشان، وكأنما ضاع كل جهده الذي بذله لإبعادي عن السحر والعهود السفلية.

- لا عليك يا أنيس، لا عليك.. أنت لم تُقصر قط في إبعادي، بل نجحت يا أخي في جعلي إنسانًا متعلمًا مثقفًا. هذا ما نحتاج إليه لمواجهة ما كُتب علينا.

قاطعني في حزم:

- ما كُتب إنما كُتِب عليّ أنا. عُد إلى القاهرة الآن.

- لن أعود.. لم أعد صغيرًا. على الأقل دعنا نتحمل كل هذا سويًا.

اقترب مني أنيس، ابتسم في شفقة، ربت على كتفي وقال:

- لتنهي دراستك أولًا، ثم نتكلم في هذا الموضوع لاحقًا.

- لاحقًا؟ وهل ستصبر الشياطين؟ أعرف أنك تريد إبعادي بأي طريقة.

- آدم.. أخي.. لو غاص كلانا في الطين، فمن سينقذنا؟ أنت أفضل مني، أذكى، أوسع ثقافة. لتبق على البر وتراقب من بعيد. أعرف أنك ستجد خلاصًا من هذه اللعنة، ولا أعرف كيف. لكن حدسي لا يخيب. عُد إلى أمي الآن.

- سنعود معًا.. هيا..

أشار أخي إلى ما تحت الشجرة التي كان يقف جوارها وقال:

- هذا قبر أبانا يا آدم. لقد أوصى بأن أدفن معه كل أغراضه. وأوصيك يا أخي أن تدفنني جواره حين أموت.

- لن تموت.. على الأقل لن تموت قبلي!

لا أعرف لمَ تفوهت بتلك العبارة، لكنني لم أتمنَ شيئا سوى أن أموت قبل أمي وقبل أنيس. لن أتحمل الوحدة التامة بعدهما. أتتخيل أن تحيا بعد موت كل من يحبونك؟

سألته:

- كيف مات أبي؟

- مقتولًا. وجدناه مقتولًا برمح في حجرته المغلقة.

- رمح ؟

- هذا ما حدث. لكن بعد سويعات قليلة، احترت خلالها في إبلاغ الشرطة أم السكوت عما حدث، قررت الإبلاغ، لكنني وجدتُ جسد أبي سليمًا تمامًا. لم أجد بُدًا من دفنه حيث أوصى، ثم إشاعة خبر أن والدي قد توفي في رحلة له في الصعيد وسيدفن هناك. لم يكترث أحدٌ لأمر العزاء إلا بضعة نسوة واسين أمي وأتين لها بطعام يكفي عدة أيام ثم رحلن. بعد الدفن، عدتُ لحجرة أبي وكدت أفقد الوعي حين رأيته جاثمًا في ركن الحجرة، ممسكًا برمح.

- من رأيت؟!

رغم البرد، كان أنيس يتصبب عرقًا وهو يسترجع المشهد.

- كأنما وطواط ضخم، أتعرف كيف تزحف الوطاويط أحيانًا على كوعيها، أو.. أو أجنحتها، لا أعرف تحديدًا علامَ تزحف! في لحظة كان كُتلة حالكة السواد في ركن الحجرة، وفي لحظة زحف بحركة مزعجة

متقطعة نحوي، وألقى تحت قدماي بكتاب العهد.

أفهمني كل شيء، وعرفت حقيقة ما كان يفعله أبي وكنت أظنه دجلًا لا يتعدى خداع الناس.

كنت أعرف ما يتحدث عنه أنيس، فطوقته بذراعاي وعُدنا في الظلام إلى المنزل. أنيس أخذ العهد الشيطاني، لكنه أقسم ألا يستخدم الكتاب أبدًا.

لكنني كنت أعرف أنهم لن يتركوه لحاله، وإن تحمل هو أذاهم، فلن يتحمل أن يؤذوا أمي أو يؤذوني. وكان عليَّ أن أفكر سريعًا في حل.

***

أصرت رجاء على أن تفطر سهير معها صباح يوم إذاعة الحلقة الثالثة من البرنامج، وأن تذهبا معًا إلى الاستوديو في المساء.

شعرت رجاء أنها ربما أغضبت سهير في اليوم الأول لبث برنامجها، وكانت تشعر أنها صارت أكثر حدة بعدة وفاة زوجها وزواج أبنائها. شغلت وقتها في تعليم اللغة الفرنسية بعد أن تقاعدت عن عملها كموجه أول في التربية والتعليم، وراحت تصنع المخبوزات كهواية في البداية، ثم افتتحت محلا صغيرًا للبيع بالقرب من منزلها.

جلست سهير ورجاء في ركن المحل، تتناولان إفطارهما، وتتحاشى سهير الحديث عن الرعب.

ضحكت رجاء فجأة وقالت في خجل:

- أتعلمين.. لقد حلمت أمس بالحاجة مريم.. زوجة عمنا رفاعي.

- حقًا؟ ماذا رأيتِ في الحلم؟

- غالبًا أضغاث أحلام إثر ذكرك لها في الحلقة الماضية.

- إن كنت حقًا تظنينها مجرد أضغاث، إحكِها..

تنهدت رجاء وكأنما كانت تريد أن يلح عليها أحد في الحكي، وقالت:

- لا شيء.. رأيتها في سن صغير، ربما سن المراهقة، وكانت ترسم على حائط بيت قديم رسومًا تُرحب بالقادمين من الحج.. جمل وكعبة وما إلى ذلك.

- الحاجة مريم رسمت بالفعل رسومًا جميلة على حائط منزل جدنا. لكن على أيامنا كانت تلك الرسوم قد بليت.

- أجل.. لكنني أظن أنها لم تبلى تمامًا، لا زال أغلبها واضحًا، إلا في موضع بعينه مُتساقط الطلاء. في حلمي رأيتها ترسم الكعبة والجمل، ثم تمسك برأسها فجأة وتسقط فرشاة الطلاء من يدها. ثم تبدأ في الحديث والصراخ على شخص لا أراه، تصارع كأن أحد يدفعها، ثم تدفع من كانت تصارعه إلى الحائط، فينفجر لون أسود على الجدار كأنها رمت عليه دلوًا من الطلاء الفاحم. يسيل الطلاء للأعلى مُشكلًا.. مُشكلًا ظلًا يشبه الظاهر في الصور التي صورتها للدجال في المولد قديمًا.. أتذكرينها؟

عدلت سهير من وضع نظارتها على قصبة أنفها ضاحكة:

- واضح أن أثقلتِ في العشاء يا رجاء لا أكثر.

- أعرف.. لكن اللون الأسود الذي رأيته في الحلم، كان في الموضع المقشر من الحائط في الحقيقة.

- وماذا يعني هذا؟

- ربما لا شيء.. أحببت فقط أن أحكي لك.

لم تكن الحاجة مريم إمرأة عادية أبدا. كانت ابنه عم أبي سهير ورجاء، وزوجة عمهما. كان لها مكانة عُليا في العائلة، فالكل يحبونها،

وجميع شباب العائلة كان يتصارع على الفوز بها. كانت مرحة بشوشة لم يَرَ أحدٌ في طيبتها، ولم يَر أحدَ في عدلها وشدتها في المآزق. تقول أمها أنها من نسل مبروك، ولا يعرف أحد معنى لتلك البركة أو مصدرًا لها.

وكانت ترى ما لا يراه غيرها، وتتصرف معه بكل قوة وحزم. رغم غرابة ما تملكه من هبات، إلا أن أحدًا لم يخف منها أو يبتعد عنها، بالعكس، فالمرضى يتحسنون برفقتها، ووتسهل الولادات المتعسرة في تواجدها، وتتعالى الضحكات ويزداد المرح في جلساتها.

وفي يوم خرجت الحاجة مريم للسوق ولم تعد لمدة ثلاثة ايام، حتى وجدوها في أرض جرداء مهجورة، مُصابة بالفالج.

حتى اليوم، وبعد أن تجاوزت السبعين، لا زالت الحاجة مريم تعيش في دارها، تضحك وتشع حبورا وبهجة رغم فقدها للقدرة على الحركة والحديث. يقولون أن سهير تشبهها شكلًا وشخصيَة.. لكنني أقول أن التشابه بينهما أكبر بكثير.

وأقول كذلك أن الحاجة مريم، لم تكن كما يظنونها أبدًا.

***

يردد مهاب افتتاحيته المُعتادة قائلًا:

- يا مساء الفل! أنا مُهاب عمارة، وهذا هو الموسم الثاني من برنامج «بعد منتصف الليل».

ثم ينهي مقدمته بـــــ:

- نعدك برعب يُنسيك كل ما يُقلقك.. نعدك، سنُرعبك! معنا ضيفتنا الدائمة المصورة الفوتوغرافية سهير زاهر. أهلا بحضرتك أستاذة

سهير.

- أهلا أهلا.. أوحشتموني أيها المرعبين والمرتعبين!

- ألم يحدث لك شيء غريب الأسبوع الماضي؟

- بعد أن أوصلتني يا مهاب حتى منزل رجاء، وجدتها غاضبة مني كوني لم أبت عندها ليلة أمس، فنزلنا مجددًا في تمشية على النيل. لست من هواة التمشية على النيل عمومًا في الليل. البحر ليلًا لا يكون مرعبًا بالنسبة لي، فمهما اشتدت ظلمته، فيمكنني سماع صوته، أما النيل فيبدو لي كهوة حالكة بلا صوت. أعاني من رهاب قديم من النيل.

- طالما رُهاب، فلا بد أن تحكي لنا. يجب أن تكوني قد مررت بتجربة مرعبة.

- لو حكيتُ لك ستسخر مني!

بدأ التوتر في التسلل إلى قلب سهير مجددًا، وراحت تضحك دون سيطرة منها، وهنا لمحت استياء المتابعين الفوري. كادت تبكي، لكنها ضحكت وقالت:

- هكذا سيصبح برنامج عفاريت سهيرا! إن حكيت لك ستضحك على حماقتي!

قال مهاب في رفق وقد شعر بتوترها:

- نحن هنا نصدق بعضنا البعض لأن الرعب حتى لو كان مسببه وهمًا فإحساسنا به حقيقي مائة بالمائة. إحكي..

- في الماضي، كان هناك بقالٌ عندنا في شارع الحلو يصنع الشطائر للموظفين والعمال الذين ينزلون لأشغالهم باكرًا، ويصنع الشاي والقهوة ويصبهما في أكواب زجاجية جميلة، حيث يجلس وحوله الزبائن يشربون ويتحدثون معه. أتعرف جلسات الإفطار التي نراها في المقاهي حاليًا؟ شيء يشبها. كنت في الصف الرابع الابتدائي ونزلت مع

والدي قبل موعد مدرستي، كنت أحب التمشية معه. وقف هو يشرب كوب الشاي، ووقفت أنا أقرأ عناوين الجرائد التي لم أفهم أغلبها، وآكل شطيرتي. هنا رأيت البقال يفعل شيئًا غريبًا .. كان يقرأ الشاي!

- يقرأ أوراق الشاي مثل عرافة فيلم هاري بوتر؟

تضحك سهير وهي تسترجع المشهد وتقول:

- كلا .. لم يكن الرجل آية في النظافة، فالماء الذي كان يصنع به الشاي كان مُعبئًا في «جركن» كان يحفظ فيه زيت أو ماده زيتية في وقت سابق، فكان يظهر على سطح الماء بعد صبه على الشاي طبقة زيتية، وكان يجلس ليحدق فيها ويقرأها كما يقرؤون الفنجان.

لكنني لم أجرب ما يفعل، ولم يقرأ لي الشاي قط. بعدها بفترة كنت أنا وأبي ورجاء في رحلة إلى القناطر، وفي وقت المغرب عدنا في أوتوبيس نهري. شاهدت خلال رحلة العودة طبقة زيتية على سطح النيل، وتذكرت البقال إياه. اقترحت على رجاء أن أقرأ لها المستقبل. ظللت أحدق في طبقه الزيت على سطح الماء وأقول لها أي هراء، لكن بعد دقائق ظننت أنني قد رأيت شيئًا يتحرك بالفعل تحت الماء.

سألها مُهاب مازحًا:

- جنيّة؟ نداهة؟!

- لقد خطر هذا في بالي طبعًا.. كنت أرى بالفعل ما أراه، ولم أكن أتخيل. كنت أرى عصفور ا أو طائرًا مقلوبًا تحت الماء، الماء نفسه بدأ يتحرك، وتشبثت بذراع أبي رعبًا.. فجأة رأيتُ سمكة تشق الماء وتطير لأعلى، وتنزل مرة ثانية! ظللت أصرخ وأصرخ والناس يشاهدون ما أفعل ويضحكون. لقد تسببت في حرج كبير لأبي يومها. المهم بمجرد أن يحل الظلام لا أستطيع أن أنظر الى سطح الماء المظلم الصامت.. أخاف أن يحدث أي شيء بلا مقدمات.

يضحكان، ثم يقول مهاب:

- فعلًا.. أحيانًا يرعب المرء نفسه من أشياء تافهة. لكن أعتقد أن خيالك واسع، أليس كذلك؟

- كثير ما ورطت نفسي في المشاكل بسبب خيالي الواسع هذا. أرى معطفًا مُعلقًا رجل طويل، وأرى وجوهًا في تجعيدات القماش. حتى نقوش السيراميك أرى فيها أناس يرقصون وشجر وكلاب!

يشير المخرج لمهاب كي يغلق الحوار الجانبي الذي طال، فيردف مهاب بشكل عملي:

- نحن أيضا معنا رسالة من إحدى مرعبات البرنامج، وسبب خوفها هو كيس أسود!

***

ظل قلب سهير يدق كالطبول طيلة الحلقة بسبب توترها وهجوم المتابعين المفاجئ عليها.

كنت أريد أن أحكي لها عن الحاج رضوان، وعن تقلباته وحبه لي في أحيان، وانقلابه علي في أحيان أخرى دون داعي. هذه هي طبيعة البشر يا صغيرة، ورغم سنوات عمرك الثمانية والأربعين، إلا أنك لا زلت طفلة لا تفهم أغوار النفس مهما تظاهرت بالعكس.

تجلى هذا في ردك على رسالة السيدة التي تحكي عن كيسٍ أسود مسكون، وقعت في حبه، وكاد يقتل زوجها غيرةً منه! سرتِ يا سهير على مبدأ أن الأشياء تبدو كما تبدو. المجنون يبدو مجنونًا، الممسوس يبدو ممسوسًا.

الفتاة مُختلة، كان هذا جليًا.. لكن ما خفي من أمرها كان أعظم.

***

جلست سهير مع مهاب في كافيتريا بعد الحلقة، يتناولان وجبة خفيفة، مع كوب الشاب بالحليب الذي لا تشرب سهير سواه، وراحا يتحدثان عن مكالمة الحلقة، والتي زعم فيها المتصل أنه يقوم بمغامرة على الهواء كي يعرضها في قناته على يوتيوب، وانتهت المغامرة بغلق هاتفه بعد مواجهة غريبة مع كائن الناس ناس المرعب!

- مبدئيًا يا أستاذة، لا أريدك أن تُلقي بالًا للتعليقات الآن. واحكي لي موضوع الناس ناس هذا، لم أستطع التركيز أثناء الحلقة.

- أشعر بالذنب كوني كرهت أدهم هذا عندما كان يسخر من مصر ويزعم أنها خالية مما يستأهل البحث والتوثيق الما ورائي، واغتظت أكثر من الطريقة المُستخفة التي كان يتحدث بها، واشتعلتُ غيظًا حين اعترف أنه قد زوّر بداية مكالمته وأوهمنا أنه يسمع أصوات موسيقى شعبية وجعلني أظن أنه يواجه ذلك النشاط الخوارقي المُعتاد في الصحاري. أن يسمع المار أصوات موسيقى وينجذب لها ويسير خلف مصدرها حتى يضل طريقه.

- لا زال هناك احتمال أن يكون كاذبًا بشأن أنصاف البشر الذين رآهم في الحانة التي ظهرت له فجأة في الصحراء. قد تكون مكالمة مُفتعلة من الأساس.

- لا أظن.. التفاصيل التي ذكرها أحسبها بعيدة عن ثقافته الغربية. لقد قال أنه رأى أنصاف شطائر وأنصاف زجاجات مياه وفاكهة على الطريق..هذه علامات وجود الناس ناس، المخلوق المرعب من الأساطير العربية، والذي يظهر للناس على شكل أنصاف بشر. هل

سمعت ذلك الصوت المرعب يا مهاب عبر الهاتف؟ أتذكر كيف كانت المخلوقات تصرخ ناس ناس!

ضحك مهاب وهو يرى سهير أمامه وقد استحالت أمامه إلى طفلة مبهورة. لقد سمع الصوت أثناء المكالمة وآثار قشعريرته، لكن..

- سمعته بالطبع! لكن لماذا سُمي ناس ناس؟

- يقال أنه يبحث عن ناسه! كيان مخيف يشعر بالوحدة.. لا أعرف لم ذكرني بذلك الكيس الأسود!

- آه من ذلك الكيس! سوف أظل أعوامًا أشفق على أكياس التسوق وأخاف أن أحملها أكثر من طاقتها بسبب تلك القصة! ولا زلت أعتقد أن أدهم هذا مُدعي.. أيوجد فعلا ما يسمى بالناس ناس؟! لا أظن أبدًا.

- أنا عكسك وأشعر أنه صادق. من خلال محاولاتي لدراسة المواقف المرعبة، هناك عوامل كثيرة تتحكم في ما يراه المشاهد للأمور خارقة، منها ثقافته وديانته مثلا. لو افترضنا أن تلك المواقف حقيقية فمصدرها نوع من الطاقة وليس كائنا حيًا أو أسطوريًا مثل الناس ناس هذا. من خلال قراءاتي، أقول إن تلك الظواهر مصدرها طاقه ذكية أو كيان غير مادي يرسل لعقولنا الصور المرعبة مباشرة ولا يجسدها بشكل مادي أمام عينيك. أي أنك ترى الظاهرة عن طريق تخاطر عقلي لا رؤية عينيه. هذا يمكن أن يفسر رؤية بعض الأشخاص لأشباح في مكان ما وعدم إمكانية رؤيتهم عند بعض الناس في نفس المكان. في حالة أدهم، الرعب الذي حدث معه هو رعب مغلف بثقافته وذاكرته.

قطب مهاب جبينه محاولا تطبيق ما تقول سهير على ما حدث لأخيه عمرو وسألها:

- لا أفهم ماذا تعني بأن الرعب كله مجرد تهيؤات. إذًا فالظواهر الخارقة مجرد مرض نفسي أو عقلي لا أكثر.

خلعت سهير نظارتها العملاقة، وحكّت عينيها ثم ارتدتها مرة أخرى وقالت:

- المرض العقلي هلاوسه نابعة من خبرات وذكريات المريض، فلا يمكن لمريض أن يهلوس بشيء لا يعرفه ولم يسمع عنه من قبل. بينما لو فرضنا صدق أدهم فهو قد خدعنا في البداية بمحاكاته للموسيقى الشعبية التي تخيلها. لكن الكيان الذكي غير المادي الذي يسكن المكان وضع في عقل أدهم صورًا ومواقفًا تمزج ثقافته الغربية بأسطورة الناس ناس والذي لا يعرف عنه شيئًا. أدهم لا يهلوس هلاوس مرض عقلي، وإنما وُضع في عقله تجسيد لكيان الناس الناس والذي بدوره كيان لا أصل له إلا الكيان الذي يبثه في عقول المارة. أتفهمني؟

- لكن كلامك يا أستاذة سهير معناه أن للرعب مصدرٌ واحد. أقصد على اختلاف أشكال الكائنات المرعبة التي يراها الناس، أيمكن أن يكون مصدر كل هذا كيان واحد عاقل؟

- ثمة نظريات روحانية تقول أن الشياطين مصدر كل الخيالات المرعبة، وقد شرحت تلك النظرية في كتابي. ذكرني أن أحكي عنها في حلقة مُقبلة.

وافترقا، لكن ظل حديث سهير لا يفارق عقل مُهاب، بل ويدفعه لتذكر آخر أيام عمرو وما حدث له ودفع عقله لرفضه كل تلك الفترة.

***

ظللث في طنطا بعد وفاة والدي بضعة أيام، حيث كان ما يسيطر على أنيس هو غضبه من أبينا لا حزنه عليه. كيف يتركه لمفاجأة كتلك؟ ولمَ لم يحذره كي يحتاط مُبكرًا؟

لكن أنيس لو عرف ما استطاع اتخاذ أي حيطة. فالعهد الشيطاني عهد مُلزم للساحر ولذريته من بعده، لا ينتهي إلا بموت الذرية وانقطاع حبلها. لا توجد طريقة لفك العهد ولا فدية تُدفع لحله.

لم تذكر كتبي أي وسيلة للخلاص، ورفض عقلي الانصياع لهذه الحقيقة. إن لم نستطع الرضوخ لمطالبهم، فلنحاربهم! لكن كيف؟

لفت نظري من قبل أساليب الجمعية الروحانية البريطانية في قياس القوى الما ورائية، والتعامل معها على كونها طاقة من نوع خاص، لا أكثر. هكذا كان علماء الروحانيات يبيتون في البيوت المسكونة والمقابر، يقيسون ويحللون ولا يهابون شيئًا. عليّ أن أركز تفكيري في تلك النقطة، والعمل على تطويرها.

مشكلة الجمعية الروحانية البريطانية هي أنها تتجاهل تمامًا الحقيقة الدينية عن ضرورة وجود الشياطين، وتعتبر أن كل الظواهر الغريبة مصدرها طاقات غامضة يسمونها «أشباح صاخبة»، ولم يضعوا لها تفسيرًا. بينما علم الشياطين يُقر بوجود تلك المخلوقات الشريرة، ويُقر كذلك بوجود مخلوقات روحانية مختلفة، لكنه لا يستطيع محاربتها إلا تحت مظلة الدين وطقوس طرد الشياطين وخلافه.

ظلت تلك الأفكار تعصف بذهني، ووجدت نفسي بلا سبب واضح، في باحة مسجد السيد البدوي المغسولة بماء المطر، وقادتني قدماي حيث الزاوية التي يجلس فيها الشيخ طاهر. لن أتوقع أن يعرفني بعد كل تلك السنوات، لكن هشّ للقائي وقام من مكانه يصافحني. لم نتحدث كثيرًا، لكننا صلينا وتناولنا الينسون والشطائر. لم يسألني عن سر عودتي إليه، ولم يتعجب من الهم الذي يُثقل كاهليّ. أمضينا نحو ساعتين ثم هممتُ بالقيام فأمسك بكتفي وطلب مني أن ألتفت لدراستي ولا أحمل همًا لشيء، وقال إنه سينتظر مني زيارات قريبة وعليّ ألا أبخل عليه بها.

مرت ستة أشهر أنهيت فيها امتحانات عامي الأخير في الكُلية، وعدت في إجازة إلى البيت كي أفضي إلى أنيس بما توصلت إليه خلال

قراءاتي. اختلينا في حجرة أبي، والتي صارت حجرة أنيس، والتي غسلتها أمي بالماء والملح كعادتها، وأغلقنا الباب ثم جلسنا على الأريكة نتحدث. سألت أنيس:

- هل استخدمت الكتاب؟

- ليس بعد.. لم أضطر لذلك.

وتذكرت ما رأيت أبي يفعله في المولد، وما قرأته عن عهد الدجالين. لن يتحمل أنيس أن يؤذي أحدًا، وكان ما أخشاه هو أن يفقد تعقله ويقتل نفسه. سألته:

- أنيس، ألا يمكنك تمرير العهد لي

- مستحيل، ولن أسمح بأن يكون هذا الخيار ممكنًا! لقد اتفقنا يا آدم على أن تظل أنت على البر. لن نُعيد الحديث مُجددًا!

- كل ما أردت قوله هو أن علينا أن نستغل الكتاب في جمع المعلومات عن ماهية هذا العهد وما يحدث فيه ولمَ لا يمكننا حلّه.

سيطر على عقلي ما رأيت أبي يفعله مرتين في المولد، المرة الأولى وأنا بعد طفل في الحادية عشر، والمرة الثانية وأنا في الخامسة عشر. في الموالد بين ذلك العامين، كان أبي يتظاهر بطرد الشياطين والجن، ولاحظت أنه يستخدم كتابًا مختلفًا عن كتاب عهد الدجالين. أبي كان يمارس السحر الحقيقي كل بضعة أعوام، بينما يتظاهر بذلك باقي الوقت. لا بد وأنه كان يغطي على أفعاله بالدجل والحيلة.

أخيرًا، قلت لأنيس:

- لدي خُطة.. إن نجحت نجونا، وإن لم تنجح فربما نُقتل جميعًا.. اسمعني..

تشعر سهير بأن العام الماضي الكئيب الثقيل سيُعاد من جديد. الوباء

يعود، الظلام، البرد. عام مضى لم تشعر بأيامه، ولا بأعياده. عام الوحدة والعزلة الثقيلة على روحها التي تعشق الزحام والأهل واجتماع العائلة.

كان البرنامج هو الشيء المثير الوحيد في ذلك العام، واعتبرته سهير إعادة اكتشاف لنفسها، وخروج من حيز الأوراق الذي دست فيه رأسها طيلة حياتها، مابين كتب ولوحات رسم، وصور فوتوغرافية.

أغلقت سهير على نفسها باب الاستوديو الخاص بها قبل موعد فتحه بساعتين، كما اعتادت منذ افتتاحه عام ١٩٩٨. لكنها هذه المرة كانت وحيدة، على خلاف عادتها الصباحية طيلة الأعوام السابقة، في استقبال جاراتها وصديقاتها في الاستوديو وتناول إفطار متأخرًا سويًا وتبادل الحكايات والنكات.

سهير مُستمعة ممتازة، وكانت تستأنس بأصواتهن وصخبهن الذي يعطيها دفعة لمواجهة العمل ليوم آخر. كُنّ خمسة، وسهير سادستهم. والعام الماضي فقدن رقية في موجة الوباء الأولى. فآثرن الحيطة واعتكفت كل في بيتها، خاصة وأنهن غير عاملات، وظلت سهير تحاول أن تحيا بشكل طبيعي دونهن، لكن هيهيات.

أخرجت سهير قطها السمين الثمين مشموش من قفصه الزهري الصغير، فراح يعدو هنا وهناك ناثرًا شعره الرمادي والأبيض، مُتشممًا الأرجاء في فضول.

لا تفهم لمَ صار عُمر حفيدها كارهًا لهذا القط فجأة، ولم صار يأكل اللحوم بهذه الكميات. من يومين وجداه قد أكل نصف كيلو من اللحم البارد وحده، ووقفت هي وابنتها رانيا تنظران له وهو جالس أمام البراد يلعق يديه وقد كسر الطبق بعد أن جذبه من فوق الرف. تمنت سهير أن يأتي علاج الطبيب له بنتيجة وإلا فستلجأ للتقويم السلوكي لدى متخصصين من زملاء أسامة.

انتهى مشموش من فحص الاستوديو، والتف متكورًا على نفسه فوق

أريكة جلدية هناك وغط في النوم. تذكرت سهير –وهي ترشف الشاي بالحليب- كيف وجدت مشموش. منذ أقل من عامين كانت تصور إحدى حفلات الزار، وفي طريق عودتها إلى الاستوديو، وجدت سيدة جالسة على الرصيف، تربت على شيء على فخذيها وتهمهم. ظنتها سهير تُهدهد طفلًا، لكنها حين اقتربت، وجدت أن المرأة تربت على الهواء.

يومها، ظلت سهير في الاستوديو تُحمض الصور على الطريقة الكلاسيكية، بالأحماض. وحين أصابها الإرهاق، استلقت على الأريكة الجلدية وأغمضت عيناها حتى يأتي أسامة ليعودا إلى البيت معًا. بعد دقائق من غيابها في النوم شعرت بشيء مُشعر يحتك بكفها المُدلى قرب الأرض، فنظرت إلى أسفل ولم تجد شيئًا. غفت مرة أخرى، لتشعر بشيء مشعر يحتك بكفها، قامت فزعة لتجد أمامها قط سمين رمادي الشعر أزرق العينين ينظر إليها. حملته وخرجت إلى الشارع تنظر حولها، ربما تجد صاحبه، لكنها فوجئت بالسيدة غريبة الأطوار تقف أمامها وتنظر إلى داخل الاستوديو وتبحث في الأركان وتمسح الأرض بعينيها، أشارت لها سهير إلى القط وسألتها: أتبحثين عن هذا؟ لكن السيدة لم تعبأ بها ورحلت. أخذت سهير القط إلى بيتها، وهو قرار عارضه أسامة كثيرًا لخوفه المرضي من القطط، إلا أنه دائمًا ما يلين قلبه لكل كائن ضعيف وحيد حتى ولو كان قط.

في اليوم التالي، رأت سهير السيدة الغامضة جالسة جوار الاستوديو، وكانت تربت على الشيء الخفي على فخذيها، وحين أبصرت سهير، قالت للشيء الخفي: أهكذا تفزع المرأة؟ عيبٌ عليك!

لم تعرف سهير السر وراء خوفها من المُشردة الغريبة، وسألت عنها عم محمود، وهو رجل مُسن ينظف المحال في المنطقة منذ زمن، وأخبرها أن المرأة اسمها كريمة، وقد أصابها الجنون منذ زمن وقطعت رأس زوجها، ثم جلست بالرأس المقطوع في الشارع تهدهده وتلومه على استفزازها! أودعوها وقتها مستشفى الأمراض العقلية، لكن يبدو أنهم قد أطلقوا سراحها بشكل ما، وتركوها تهيم بالقرب من محل إقامتها

القديم.

يظن العم محمود أن كريمة قد جُنت من يومها، وتتخيل أن الرأس لا زالت بحوزتها، لكن هذا التفسير قد أرعب سهير أكثر مما أضاء لها غموض الموقف. تذكر جيدا أن ملمس الشيء المشعر الذي احتك بيدها أولا كان أخشن من شعر القط.. أم تُراها تتخيل؟! أكان ما أفزعها وما كانت تبحث عنه كريمة هو رأس الزوج القتيل وقد كانت تتنزه داخل الاستوديو؟!

لو كان هذا الموقف هو أول ما يحدث لسهير ولم تجد له تفسيرًا ما اهتمت، لكن منذ أن وعت على الدنيا، وكل شيء يحيط بها غريب وبلا تفسير. كان أبيها يعرف أنها مُختلفة، وكانت رجاء تعرف ذلك، وكانا يُفرطان في حمايتها وتكذيب أي تفسير يخيفها حتى لو يكن هناك سواه. مع الوقت لم تعد سهير قادرة على تذكر المواقف الغامضة التي كانت تحدث معها بدقة، واختلطت عليها تفسيراتها بتكذيبات من حولها بما فيهم أسامة نفسه. لكن أسامة بدأ يميل تدريجيًا للتفهم وعدم الإنكار، بالذات منذ أن بدأت مشروعها الخاص بتوثيق الموالد. ولم تعد التفسيرات التي تعتمد على قوانين المُصادفة تُسمن أو تُغني من جوع. إن كانت تتخيل طيلة طفولتها ومراهقتها أمورا غريبة، فالصور لا تكذب.

وكانت تتمنى سهير لو وجد أسامة تفسيرًا لما تراه في الصور، لكنه بدلا من ذلك، أصر على أن لا تعبأ بالتفسيرات، وأن تشق طريقها وتنجح، وتحيط نفسها بالأحباء والأصدقاء والمعجبين بأعمالها الفنية، وتنبذ البحث وراء ما يحدث.

لكنه كذلك لم يترك سبيل البحث عن تعليلات..

أكوام كتب ما وراء علم النفس التي كان يكدسها جواره على الكومود تشهد بأنه يبحث، وبأنه قلق. مرة أو اثنتين وجدته يتصفح بعضًا من كتب علم الشياطين والروحانيات التي اشترتها كي تُعد المادة العلمية

لكتابها. كان يسخر من محتواها، لكنه لم يستطع قط التغافل عن وجودها.

والآن تشعر سهير بأسوأ شعور مر عليها طيلة حياتها، أنها أصبحت خطرًا على من حولها. مكالمة نادر شريف السعدني أهابتها، ثم جاءت من بعدها مكالمة مراد وجبر الشيطان.. هل البرنامج لعنة؟ أهي نفسها لعنة؟

عزمت سهير على زيارة الحاجة مريم، زوجة عمها وابنة عمه، قبل أن تسافر لتقديم الحلقة الرابعة من البرنامج. فهي لم تزرها منذ بداية جائحة كورونا خوفًا من أن تنقل لها العدوى. لكنها الآن في حاجة لرؤيتها حتى لو من بعيد.

***

قد يتفق بعضكم على ضرورة تحذيري لسهير، وقد يختلف البعض باعتبار ما قد أخبرتكم به مسبقًا، من كون التحذير لن يُفيد.

لكن دعوني أوضح لكم أن الوقت الذي كان فيه التحذير مفيدًا، لم أكن أنا أفهم ما يدور ولا ما عليَّ تحذيرها منه، وحين عرفت كل شيء، كانت العجلة قد دارت ولا أعرف لها طريقًا للتوقف، ولا سبيل إلا الجري أمامها وإلا سحقتنا.

اعذريني يا صغيرتي سهير..

اعذريني حين رأيتك في مولد السيد البدوي، ١٩٩٦، ولم أكن أنتوي أن أتبعك إلى هناك، ولم أكن أعرف أنك تودين تصوير أبي بالذات، ولم أكن أعرف أنه يومها كان يمارس السحر الحقيقي لا الدجل والنصب.

كان أبي جالسًا وسط دائرة واسعة من الملح المنثور على الأرض،

وجواره الكتاب إياه، العهد الحقيقي. خارج الدائرة كان أنيس يكلم الناس، ويبعدهم، ويلقي بالأوامر، بينما أبي يمثل أنه أبكم. والدي كان أبكم بالفعل وشُفي بمعجزة شيطانية ما، وأخفى شفاؤه عن الجميع.

أراكِ على الجهة المقابلة لي من الدائرة، ترفعين كاميرتك وتصوبينها في إتجاهات مُختلفة، تصورين الأشواك المنثورة حول أبي داخل دائرة الملح. تصورين الزحام وتدافع الفضوليين، تصورين المرأة الممسوسة التي أمر أخي أن يغطوها بالكامل، ويُجلسونها على كرسي يحمله رجلين من محارمها، ويدخلونها به إلى داخل حدود الدائرة، ثم يساعدونها على الاستلقاء فوق الأشواك.

***



الحلقة الرابعة

١٩ نوفمبر ٢٠٢٠

بعد الفاصل الذي تلى رسالة أحد المستمعين هتف مهاب:

- والآن مع مكالمة الحلقة، وهي مكالمة من شخص يزعم أنه يمتلك أغرب قصة سنسمعها، ويدعي كذلك أنه يعرفك يا أستاذة سهير كزميل.

يظهر صوتي عبر الهاتف، كان غريبًا على أذناي. لي دهر لم أحادث أحدًا عبر الهاتف. قلتُ بصوت خشن مخلوط باللهجة الريفية التي اكتسبتها من حياتي خلال مكوثي في الموالد ومحاولاتي للتماهي مع روادها:

- مساء الخير أستاذة سهير..

في حماس طفولي سألتني:

- أهلا بك.. أنت مصور؟

ابتسمت ولم تظهر ابتسامتي على صوتي. قلت:

- كلا.. مجرد زميل.

- زميل دراسة تعني؟ أكنت تدرس في كلية الفنون التطبيقية معي؟

- كلا.. أنا درست الكهرباء، لكنك زميلتي في مهنة لا تعتبرينها مهنتك، لكنها كل حياتي.

سألني مُهاب:

- أيمكن أن تعرفنا عليك بشكل أفضل يا أستاذ لاشين؟

متعمدًا إحراجه أجبت:

- كلا..

ثم وجهت حديثي لسهير قائلًا:

- مدام سهير، لقد تقابلنا في المولد عام ١٩٩٦. غالبًا لن تذكريني. كنتُ في الخامسة عشر وقتها. لكنني أذكركِ جيدًا، وأذكر الصور التي التقطتها في ذلك المولد، أولى صوركِ للموالد.. أتذكرين؟

قالت سهير في قلق:

- أنت تعرفني حقًا! ولم لا زلت تذكرني بعد كل تلك السنوات؟

- لأن هذا هو اليوم الذي تغيرت فيه حياتك دون أن تدري، وظللت أعوامًا أنتظر أثر هذا اليوم عليكِ.

سأل مهاب في انزعاج واضح، وله الحق:

- هلا وضَّحت أكثر من تكون؟

أجبت وأنا أوجه كلامي لسهير:

- اسمي لاشين.. وهو لقب عائلتي لا اسمي.. ألا يذكركِ هذا اللقب بشيء؟

- لو أنك سترتبط نفسك بمولد عام ستة وتسعين، فأنا عرفت من يكون لاشين! لكن.. مستحيل أن تكون هو..لاشين الذي أذكره كان أبكمًا.

في ضيق صاح مهاب:

- من يكون لاشين هذا؟!

أجبت ولم أكن أوجه إجابتي له:

- لاشين لم يكن يتكلم فعلا خارج بيته، ولاشين الذي تذكرتيه لم يكن أنا، أنا ابنه.

- أنت ابن الشيخ لاشين! لكن اعذرني، لقب شيخ لا يناسب ما كان يمارسه أبوك. حرام إطلاق لقب شيخٍ عليه.

ذكرني كلامها بكلام الشيخ طاهر، ضحكت، ضحكت وأنا أعرف كم أن ضحكتي صارت مُفزعة، فحين أضحك، يضحك اللَعناء معي. لم أكن أقصد إفزاعك يا صغيرتي، لكنني كنتُ مضطرًا للضحك:

- «حرامٌ ونصف!».. لندعوه لاشين الدجال.. لكن لا أعني هنا إنه لم يكن واعيًا بما يفعله أو ما يحدث حوله.. أتذكرين الصور التي صوَّرتِها له يا مدام سهير يومها؟ الصور أمامي الآن من كتابك أشباح الموالد، بدايةً من الصفحة السادسة والعشرين.. ستة صور، كل صورة تُظهر ظلالًا سوداء مستطيلة مدببة الطرف تهبط من الأعلى.. من الأعلى؟ وكيف وقد كان الدجال جالسًا في الخلاء أي ليس فوقه سقفٌ!

ارتجف صوت سهير وهي تتذكر قائلة:

- ظلًا منهم كان يلامس جبهة المرأة الممسوسة المُمددة أمام الدجال.. كان يلامس جبهتها بالطرف المُدبب...

***

كان أسامة خلفها في ذلك اليوم، يدفع عنها الزحام بجسده الضخم، والذي لم يكن سمينًا وقتها. ظلت سهير تصوب كاميرتها يُمنة ويسرة، والمرأة الراقدة أمامه تتدحرج على الأشواك وتبكي، وتنز الدماء من جلبابها مُختلطةً بتراب الأرض.

ساد الصمت، وقطع أبي ست ورقات من كتابه، وأحرقها، وتصاعدت رائحة احتراق الجلد المصنوع منه تلك الصفحات، الجلد البشري كما عرفت لاحقًا.

انخفضت درجة الحرارة بشكل مفاجئ كما حدث في المرة الأولى التي شَهدت فيها ما يفعل أبي. رسم أبي برماد الاحتراق علامة على جبهة الراقدة، ودوى صوت كاميرا سهير وسط انقطاع الأصوات. نظر أبي نحوها. ثوانٍ مرت كأنها ساعة وهو يحدق فيها. كورت قبضتي استعدادًا للحركة لو ساءت الأمور وهاجمها هو أو أشار لأخي بردعها. لكنه لم يفعل شيئًا، وعاد إلى طقوسه في هدوء.

صورت سهير ست صور وهي ترتعش من البرد والخوف، ثم رأيتها تتفحص الكاميرا في غيظ، وأسامة يحاول أن يفهم ماذا دهاها. من يومها، لم تعمل تلك الكاميرا مُجددًا، ولم يشعر أي من الواقفين بانخفاض الحرارة كما لاحظت.

فقط أنا وسهير..

***

قالت سهير:

- قيل لي أن أباك كان يُخرج الجن من...

قاطعتها:

- شياطين.. شياطين لا جن.

- هم يدّعون أنه جن، لا أعرف. رأيت من يزعمون إخراج الجن بطرق شتى، لكن أباك كان مختلفًا تمامًا. لكنني قلتُ لنفسي أن أباك كان ذكيًا، وصنع لنفسه هالة بغرابة طقوسه تجعل الناس يظنون أنه أفضل من غيره.

كان دم مهاب يغلي بسبب تجاهلي له، لكنني أقول حقًا أنني لم أكن أريد توريطه في أي شيء أكثر مما حدث لأخيه. لكن هل سأقدر على

إبعاده؟ الأسابيع القليلة القادمة ستحكم.

قلتُ لسهير:

- لم يكن تصويركِ للاشين تصرفًا صائبًا يا مدام سهير.

- وكيف لي أن أعرف؟! كنت أظنه مجرد مُدعي آخر! عمومًا لم يحدث لي أي سوء بسبب هذه الصور.

يضحك اللَعناء، فأضحك رغما عني متسائلًا:

- متأكدة؟

- ماذا تقصد؟ بالعكس، كانت تلك الصور سببًا في شهرتي بعد أعوام!

يضحكون، فأضحك رغما عني.. لا زال اللعناء سجناء في مكان ما.. يثور مهاب عليّ، يخافني. أقول متحاشيًا الخوض معه:

- لا أقصد سوى أن أنير طريقها.. دعيني أسألك، ماذا جلبت لك تلك الشهرة؟ برنامج بعد منتصف الليل، أليس كذلك؟

***

جلبت لك الصور اللعنة يا صغيرتي..

هذا هو مسار الأحداث دوما، كما جلبت الشياطين لأبي المال الوفير والشفاء والنجاة من خمس حوادث قاتلة.

وهذا ما كنت أتوقع أن يفعلوه مع أنيس. أن يوقعوه في مصائب يفتعلونها كي يستخدم الكتاب، وباستخدامه له، يفتح بوابة عبور صغيرة لأحد الكيانات الشيطانية الضعيفة، ويُسكنها في جسد الضحية. أجل.. لم تكن الضحايا ممسوسات، بل متوهَمات. يختار أبي

بينهن صاحبات المواصفات الجسدية والنفسية المطلوبة من الشياطين، والتي تستطيع تحمل شيطان من مرتبة دُنيا داخلها حتى يقوم بمهمته في عالمنا قبل أن يُفني جسد الضحية.

كنت جالسًا مع أنيس أبدأ خطتي، بعد شهرين من إعداد القفص الذي أخطط لحبس الشياطين فيه. صنعت حجيرة من الأسلاك التي تولد مجالًا مغناطيسيًا خاصًا، مُعتمدًا على تجربة قس أمريكي في حبس شيطان متلبس في جسد دمية، وحبس الدمية بشيطانها داخل خزانة محاطة بمجال مغناطيسي. الدمية ظلت حتى الآن في مكانها لمدة نيف وثلاثين عامًا، وقد عجزت عن الانتقال من مكان لآخر كعادتها. لكن.. ماذا بعد؟ أعتزم أن آخذ تجربة القس إلى مستوى أعلى.

أمسك أنيس الجدي الذي اشتريناه من قرنيه، وربطته جيدا كي لا يفر ووضعته داخل الحجيرة الخاصة فوق الأشواك، وأحطنا الحجيرة بدائرة من الملح وقف فيها أنيس يرتعد، ممسكًا بالكتاب وعلبة الثقاب.

وقفت أنا في ركن ممسكًا بجهاز تحكم يتيح لي تشغيل المجال المغناطيسي، وفي جيبي حزام من شوك جريد النخل.لم أكن أعرف ما يمكن أن يحدث حين يعبر الشيطان ويدرك أننا أحضرنا له جسد حيوان لا بشر. ولا أعرف إن كان المجال المغناطيسي قادر على جبسه لو لم يتلبس الجدي البائس.

أحرق أخي ست صفحات من الكتاب، ولم يطلب في المقابل شيئًا، فهو لا يريد أن يتلوث بصنائع اللعناء. دس إصبعه في الرماد الساخن، ثم أدخل يده من بين الأسلاك ورسم الرمز على جبين الجدي. أشعر بانخفاض درجة الحرارة، ولم تسجل أجهزة القياس جواري هذا الانخفاض لسبب ما.

ضغطت زر كاميرتي وراحت تصور صورًا متلاحقة للقفص. ثمة كاميرا تصوير فيديو مثبته في ركن الحجرة المقابل كذلك مع عدد من المايكروفونات الحساسة والتي كان سهل الحصول على مكوناتها

وتجميعها حسب وصف كتب أبحاث الجمعية الروحانية البريطانية.

كل شيء مُسجل بما يمكنني الحصول عليه من وسائل علمية. ما نفعله هو خطوة في طريق علم جديد لم يوجد قبلنا.

بدأ جسد الجدي في الانتفاض، وسمعت صوتًا صم أذناي، ولم يسمعه أنيس. ظل يسألني ماذا بك، ومنعته من الخروج خارج دائرة الملح. دُست زر تشغيل المجال المغناطيسي. وسمع أنيس ما سمعت.

صوت أزيز عال مُختلط بحديث لم نفهمه، وبنبرات صوت لا تصدر عن بشر. الصوت داخل رؤوسنا لا خارجها. خرج الزّبد من فم الجدي، ثم أطلق خوارًا وأسلم روحه لبارئها.

نظر لي أنيس ونظرت له. أصوات الشياطين مستمرة.. شياطين؟ من قال إن شيطان واحد فقط هو من يعبر؟

سألني أنيس:

- هل مات الجدي؟ وما كل هذه الأصوات؟! أليس من المفروض أن يعبر شيطان واحد؟!

- لا أعرف.. لا أعرف! وكيف لإنسي أن يعرف أساسًا!

- وماذا سنفعل؟

جلسنا ننتظر ونفكر في ورطتنا. يمكننا حبس الشياطين هنا إلى الأبد، لكن ماذا لو انقطع التيار الكهربي؟ أحضرت مُولدًا لطاريء كهذا، لكن...

قرأت أن الشياطين من المراتب الدنيا تهلك لو عاشت في عالمنا دون عائل بشري، لكن كم من الوقت تستطيع العيش؟

بعد ربع ساعة تقريبًا فتح الجدي عينيه، وراح يرفس ممزقا الحبال التي تربط أطرافه إلى بعضهم. أمسكت بندقيه أنيس المُرخصة لحماية أرضنا، وصوبتها نحو الجدي في حال فراره من سجنه. قرر الجدي أن ينطح الأسلاك، لكن ما كاد قرنيه أن يلمسها حتى خارت قواه وسقط

أرضًا. المجال المغناطيسي مؤثرٌ بالفعل!

هنا قررت تنفيذ الخطوة الثانية من الخطة، ومددت يداي من خلال الأسلاك وربطت حزام الأشواك حول رقبته. الأسطورة الشعبية القديمة قد تنجح، فلا دخان بلا نار.

خضع الجدي، وكف عن الحركة، لكنه كان حيًا.

أخرجت أنيس من داخل الحلقة، وأجلسته على الأريكة.كان يرتجف وهو يبسمل ويحوقل. طلب مني أن أجلب له ماءً، فذهبت للمطبخ لأجد أمي في الصالة، جالسة تنظر إلي في لوم. قالت:

- لمَ لم ترحل يا بني؟

- لا تقلقي.. لقد نجحنا يا أمي في أولى خطواتنا للتخلص من العهد. يمكننا إسكان الشياطين في أجساد حيوانات وحبسها للأبد حتى تموت! ويمكننا ذبحها كذلك ولن نضطر لتعذيب إنسان أو حيوان!

- وحين تنتهي صفحات الكتاب؟ سيموت أنيس.

قالتها بلهجة تقريرية مُستسلمة. قلت لها:

- لن يموت أحدًا! سأدرس هذا العهد وتلك الكيانات، وسنمنعهم من...

لا أعرف بعد ما سنمنعهم منه. كيف سنغلق بوابة عبورهم وكيف سننهي استخدام هذا العهد؟ ماذا عن باقي السحرة وعهودهم؟ أيغلق باب كهذا من الأساس؟ قالت أمي أخيرًا:

- على الأقل، لن يموت أنيس كافرًا احتضنتها، وجلبت الماء لأنيس، فلم يشرب، توضأ به وجلس يصلي مكانه. فحصت الجدي فوجدته ينظر حانقًا إلى أنيس. لكنه كان عاجزًا عن فعل أي شيء.

عكفت في الأيام التالية على تحليل البيانات التي جمعتها، ولم يظهر أي شيء غريب على شريط الصوت أو في الصور أو تسجيل الفيديو. لكنني سجلت نشاطًا طاقيًا ملحوظًا، نقص بشدة بعد غلقي للفخ.

لماذا تعطلت كاميرا سهير زاهر في المولد ولم تتعطل كاميراتي؟ هل هي نظرة أبي أم مجرد مصادفة؟

لم أكن أعرف وقتها اسمها بالطبع، ولم أكن أعرف الرجل معها. لكنها عادت إلى ذهني وأنا أفحص صوري، وتساءلت، هل أتواصل معها وأسألها؟

هل ستذكرني؟ خفت أن أدس بها في حجر الثعابين الذي أغوص فيه، وقررتُ أن أتركها وشأنها للأبد. هكذا كان قراري يومها.

أغلقت المجال المغناطيسي لأول مرة منذ أسبوع، وصوبت البندقية تجاه رأس الجدي لكنه لم يتحرك. ربطته بحبل طويل، ثم أخرجته من القفص. سألني أنيس:

- ثم ماذا؟ أنذبحه الآن؟

- أفكر في شيء آخر، حين يعبر الشيطان إلى عالمنا، المفترض أن يبحث عن جسد عائل بمواصفات أعلى لسيده، الشيطان في المرتبة الأعلى، ثم يفتح بوابة عبور لا يقدر على فتحها سوى الشياطين، ولا يعبر منها سوى الشياطين الأعلى في المرتبة. أليس كذلك؟

- لا أعرف.. أنت من يقول هذا. أتعجب، ألم يتساءل أبي يومًا عن سبب إصرار الشياطين على العبور إلى عالمنا؟

- لا يهم الآن يا أنيس.. المهم هو: لو أطلقنا هذا الجدي وأمسكنا بطرف الحبل المقيد به، ألن يدلنا على مكان بوابة العبور الأكبر، أو نعرف منه كيفية فتحها؟

- يجوز.. لكن، حسب كلامك، من المفترض أن يجد لسيده عائلًا بشريًا

قويًا أولًا، بمواصفات لا يقدر على تحديدها سوى تلك الشياطين الدُّنيا.

- لديك حق..

لم أكمل عبارتي، إذ هوى الجدي على ركبيته وتشقق جلده، وراح ينتحب ويهتز. جررته إلى داخل القفص مرة أخرى، وبمجرد تشغيلي للمجال المغناطيسي، انفجر الجسد البائس وغطانا بالدماء.

***

لم أتوقف عن أبحاثي حتى بعد تعييني كمُعيد في كلية الهندسة. لكن أنيس رفض استخدام الكتاب مرة أخرى، وأبعدني عن المنزل، وأخذ أجهزتي، بعد أن ألمّ بي مرض غريب قاس لم أعهده بعد انفجار الجدي. كنت أقيء دمًا، ولا أقدر على الوقوف على قدماي. قيل أنني مُصاب بفيروس غير موجود في مصر، وتناولت العلاج بلا طائل.

ثم حين ابتعدتُ، شُفيت. ركزت أغلب وقتي في محاولات فهم سر تداعي الجدي، هل طول الحبس، أم أن الجسد لم يتحمل؟ أين ذهبت الشياطين التي عبرت يومها؟ ما لاحظته على القفص وأكد لي أنهم كانوا على الأقل ثلاثة تلك اللطخات السوداء المحترقة على الأسلاك. ثلاث لطخات سوداء مستطيلة تسيل مادتها اللزجة إلى أعلى لا إلى أسفل!

فكرت في البحث عن سحرة آخرين، وطلب العون منهم كي أستخدم كتبهم أو يتركوني أقيم تجاربي حين يستخدمونها، لكنني لم أستطع أن أجد ساحرًا واحدًا حقيقيًا. جُبت البلاد طولا وعرضًا، لم أسمع سوى عن سحرة في سيوة، ولم أجد دليلًا على وجودهم أو سبيلًا إليهم.

وانقطعت أخبار أنيس عني فجأة. أغلق دارنا ولم يعرف أحد من

الجيرة سوى أن أنيس أخذ أمه ورحل، ولم يبع الأرض أو يؤجرها.

انهارت حالتي النفسية والجسدية، ووهنت حتى أن زملائي في الجامعة ظنوا أنني أتعاطى مخدر ما، أو أنني مصاب بمرض عضال. بعد أربعة أعوام، عرفت أنني مصاب بسرطان الدم، وتعجب الأطباء كيف حييت كل تلك السنوات.

لم يكن لي علاج، لكن الأطباء أصروا على المحاولة. وفي ليلة كنت موشكًا على النوم، مُتمنيًا الموت كي أنهي عذابي هذا، رأيته.

كان أنيسًا، جلس جواري ومال عليَّ، تساقطت عبراته على وجهي وهو يهمس لي:

- سامحني يا أخي.. سامحنا. ستعرف يومًا كم أن حياتك ثمينة، وستغفر لنا تضحيتنا. نحبك يا آدم.. لتبق على البر وتنقذنا.

لم أكن قادرًا على الحركة، وظننت أنني أهلوس هلاوس الاحتضار. وفي الصباح شُفيت. كما أقول لكم، في سويعات ولدت من جديد.

هاتفني أحد الجيرة بعد أيام، وقال لي أن رائحة عفنة تتصاعد من دارنا في طنطا. هرعت إلى البيت موقنًا مما سأجد، لكنني لم أتخيل في أفظع كوابيسي ما رأيت.

***

سألني مهاب:

- أتقصد أن أباك كان يساعد الشياطين على العبور إلى عالمنا كي يمسوا الناس؟!

- أجل..ولأن أخي قد عاهد نفسه على ألا يستخدم الكتاب، آذوني كي

يلووا ذراعه، واستخدم الكتاب مرة تلو الأخرى كي ينقذ حياتي، فيموت، وأحيا أنا.

***

لمَ لم تقتلني الشياطين بدلًا من شفائي؟

كانت الرائحة بشعة، أبشع مما يجب. غطيت أنفي ودخلت البيت، كل شيء مكسو بالتراب. سرت حسب مصدر الرائحة، فوجدت بقايا جلباب أمي ممزقًا وملتصقًا بالحوائط والأرضيات، معجونًا بدمها الطيب النقي. جوارها كان أنيس ميتًا، وجواره كعب كتاب العهد، وقد أحرق آخر صفحاته من أجلي.

ماذا أستنتج مما أرى؟ هل ضحت أمي بنفسها لتنقذني؟ إن كان أخي قد استخدم الكتاب مرات لعلاجي، وقد كان يراقبني بشكل ما، فعلى مَن استخدم الكتاب في المرات السابقة؟من كان ضحاياه؟ ولمَ تمزقت أمي هكذا من فورها؟

لم أكن حزينًا، كنت غاضبًا لدرجة لم أتخيلها. هدر صوتي مُتحديًا:

- الآن جاء دوري.. لننه كل هذا رجل، لشيطان!

في الركن تجلى لي، ممسكًا حربته، جاثمًا كوطواط يفوق طوله طولي. سرت نحوه ولم أنتظر أن يتقدم هو مني. ألقى لي بالكتاب، فأخذته.

- هذا سيكون آخر عهد مع البشر، هذا وعد مني.

قلت لسهير:

- أوهنوني وأعادوا لي مرضي من جديد.. متوقعَ هذا، ولا أمانع فيه أبدًا. من الخير البدء في المعركة فورًا. غطيت نفسي ودخلت الحجرة المعزولة على دراجة كي لا أمس الأرض كما تنَص الطقوس. رقدت فوق الأشواك، حرقت ست صفحات من الكتاب اللعين ورسمت الرمز على جبيني. شعرت بهم يهبطون من الأعلى.. يتشممون جسدي.. كانوا خمسة، وكانوا فضوليين، خائفين، وكأنهم في عملية انتحارية. أغلقت المجال المغاطيسي وأنا معهم بداخله. سمعتهم يتجادلون، يتعجبون مما أفعل. ابتسمت رغما عني، هم عاجزِين عن العودة إلى عالمهم، ومدركين أنهم محبوسون داخل زنزانة فرِيدة. لم يكن أمامهم سوى حلين، الحبس في الزنزانة حتى الفناء، أو دخول جسدي.

***

شعرت بهم يتصارعون، أيهم أحق بجسدي. وأدركت كم يكرهون بعضهم البعض، وكم يكرهوننا. إعصار من الغضب المقيت والكراهية التي لم ترد على قلب بشر.

كان جسدي يحتضر بسبب السرطان، لكن روحي كانت في أوج قوتها. بالنسبة لسهير زاهر كانت فعلتي انتحارِيَة، وبالنسبة لي، كان هجومًا مضمون العواقب ولا أعرف لثقتي هذه سببًا. الفرق بيني وبين الممسوسين والعامة هم أنهم ضعفاء، قابلين للإيحاء. الذين يختارونهم الدجالين لتسكين الشياطين هم بشرٌ عبيد بطبيعتهم، تروق لهم فكرة أن يكونوا ضعفاء بلا إرادة، مفعول بهم، لا يتحمل المرء منهم نتيجة أفعاله واختياراته فيتمنى أن يكون ممسوسًا.. دمية في يد شيطان

يتحمل عنه وزر أفعاله أمام الناس.

والفرق بيني وبين أنيس كذلك كان كبيرًا، أنيس تربية دجال، وأنا تربية أنيس ذاته الذي دفعني لأن أكون عالمًا لا ساحرًا. لستُ خائفًا إلا كما يخاف العالم من فيروس يفحصه تحت المجهر.

اخترقت الشياطين جسدي، ونقلوا صراعهم إلى داخله. لن أخبركم كيف تتصارع الشياطين وكيف تقتل بعضها البعض. ما يفعلونه ليس قريبًا بأي شكل مما يُعرض على شاشات السينما. أيمكنك تخيل كيف تتصارع طاقات ذكية، كريهة، مقيتة؟ لا يعرف أحد كيف سواي.

صراعهم كان يمزق جسدي، كتمت صراخي وأنا أشاهد أطرافي تتمزق، ثم تُشفى وحدها. كنتُ كسيزيف مُعلقا بين جبلين، يلتهم الرخ كبدي كل يوم، وكل يومٍ ينبت لي كبد جديد. بدا أن عذابي لا نهائيًا.. خطر لي أنني قد مُت، وهذا هو عذاب الجحيم. لكن لا.. كنت أرى الأسلاك من حولي، وأشعر بالأشواك من تحتي. هم يتصارعون أيهم أحق بجسدي، لكنهم في ذات الوقت مهمومين بشفاء هذا الجسد وإبقاءه على قيد الحياة، فبدون جسدي سيفنون!

كم مضى من وقت عليّ وأنا على هذه الحالة؟ لا أعرف، فقد توقفت ساعتي، ثم تدريجيًا راحت تعمل ببطء شديد وأنا أشعر بهم يسكنون داخلي.. لم يهدأوا لكنهم تسربوا بين خلاياي. أتعرف الشعور الذي تمنحك إياه جرعة ماء بعد عطش شديد؟ كيف تشعر بأن الماء يروي خلاياك ويصير جزءًا منك لا يمكن فصله؟ هكذا شعرت.

زال ألم جسدي، وحل محله شعور مختلف، وكأنني أحترق. حاولت الوقوف على ساقاي، كدت أهوى فاستندتُ على الأسلاك المعزولة، فصُعقت. لم تمسني الكهرباء، بل شعرت فقط بأن شيئًا غير مرئي قد دفعني خلفًا. هذا ما حدث مع الجدي في تجربتي السابقة. خفتُ أن أغلق المجال المغناطيسي الآن، فجلست في ركن الحُجيرة أشعر بصداع مميت وغثيان.ربما نمت أو فقدت الوعي، لكنني رأيت حلمًا غير

عادي. لم أكن جزءًا منه، كان حلمًا من أحلام الشياطين، غير مرئي، لكنني شعرت بما كانوا يشعرون به في عالمهم، وقد أسميت هذا العالم بعالم الظَلَمات.

شعرتُ في حلمي بخوف تلك الكيانات التي ذابت بداخلي من كيان أعلى. خوف ومقت ورغبة في الفرار، لكنهم كانوا أسرى بشكل ما، مجبورين على الطاعة.

حين أفقتُ، كنتُ بخير وقد زال كل صداع أو غثيان، ولم تعد جروح الأشواك في جسدي تؤلمني. أهذا ما يشعر به الممسوس؟ حسب ما قرأت، فالممسوس يفقد صلته بشخصيته الحقيقية ويسقط في غيبوبة لا يُدرك مما حدث فيها شيئًا. لكنني واعٍ تمامًا.

كان الليل قد حل، فلم أجد بُدًا من الخروج من الزنزانة، ومعرفة ما إذا كنت سأنفجر كما حدث مع الجدي و.. أمي.

لأول مرة لم تعد ذكرى أنيس وأمي تؤلمني، كل ما كنت أشعر به هو الغضب فقط، ورغبة مُلحة في تكرار تلك التجربة، وإفراغ عالم الظلمات كله في جوفي.

خرجت من الزنزانة، سرت في أرجاء البيت، وخرجت إلى حيث مدفن أبي حاملًا عهد الشياطين. لم أشعر أنني سأضل طريقي وسط الأشجار، فقد كنت أعرف مكاني وهدفي كأنني أرى كل شيء من أعلى. خبرة جديدة لا أملك كلمات لوصفها.

وسط الظلام شعرت براحة غير عادية، بل قوة مفرطة على إثرها رأيت بعيني أغصان الأشجار تميل مبتعدة عني، وتفر الحشرات من تحت قدماي إلى مخبئها.

وسمعت همساتهم مفهومة لي، بلغة غير منطوقة لكنها مفهومة، وشعرت بهم يرونني كأنما من خلال ثقوب صغيرة، كأنهم يتلصصون عليَّ ولا يقدرون على رؤية صورة واضحة عن عالمنا.

أصغِ.. لا أسمع.. من هو؟.. من هم؟! حاول من جهة أخرى..

ارتباكـ واضح وخوف شديد. لأول مرة عرفت أن الشياطين لا تعرف عنا كل شيء كما ظننا. ولا تقدر سوى على استراق النظر والسمع لا أكثر.

إن سكن أحدهم جسده، فلمَ لم يعُد الباقين؟ أهو الدجال أم الضحية؟.. لقد أغلق هو البوابة، أنا لم أغلق شيئًا! لقد فعلها مُجددًا.. ولن يفعلها ثانية.

رغمًا عني ضحكت، وهلعت من ضحكتي الجديدة! كانوا يضحكون معي.. مَن بداخلي، من فنوا في جسدي يضحكون معي! كيف أصف لكم هذا؟ أتعرف حين تضحك فتضحك معك خلاياكـ؟ هذا هو أقرب تصور لما حدث.

وقفتُ أمام قبر أبي، ووجدت أدوات الحفر لا زالت هناكـ، فبدأت أحفر قبر لأخي وقبر لما تبقا من أمي. لم أكن حزينًا، كنت فقط غاضبًا لا أكثر.

***

سألني مُهاب:

- ثم؟ بعد ابتلاعك للشياطين ماذا حدث لهم؟

- الطاقة لا تفنى، إنما تتحول من صورة إلى أخرى. هضم جسدي طاقتهم وصاروا جزءًا مني. حين خرجت من الزنزانة كنت مخلوقًا جديدًا، لا أعرف حدودًا لقدراته. لكنني كنت أعرف هدفي جيدًا. لآلاف آلاف السنين أهان الشيطان وأعوانه البشر على اعتبار أنهم مخلوقون من نار، والبشر أضعف، مخلوقون من طين. لكن اليوم قد جاء ليعرفوا من الأقوى.

في تهيُّب سألت سهير:

- ماذا فعلتَ؟

- صرت أصطادهم.. أفتح البوابات وأبتعلهم. لم أعد في حاجة إلى طقوس أو عهد كي أفتح تلك البوابات لأن جزءً مني صار شيطانًا. أنا الطُعم والصياد في نفس الوقت.. أنا لاشين، الأول والأخير. وفي يوم سأصل لكبيرهم، ووقتها...

انطلقت ضحكتي، فشعرت بمهاب وسهير يهلعان. تأثير مُخيف قد امتد لكل من سمع تلك المكالمة. أردفتُ:

- لم أتصل كي أحكي لكما حكايتي، كل ما أردت فعله هو إخبار مدام سهير أن اختيار البرنامج لها لم يكن مُصادفة، سيكون هناك ثمنٌ لكل هذا. وحين تدركين يا صغيرتي في أي شيء تورطتِ، لن تجدي من يساعدك سواي.

صاحت سهير:

- لو أن أسامة هنا لكان له رأيٌ آخر فيما تقول! لا يوجد إثبات على أي شيء مما زعمت. أنت رأيتني في المولد، وشاهدت الصور في كتابي وألفت قصة تافهة، فلم أصدقك؟

صوتها العالي كان أكبر دليل على أنها تصدقني. ضحكت في ثقة وقلتُ:

- وهل طلبت منك أن تصدقيني؟ لا أحتاج إلى الإيمان بي كي أصير حقيقيًا! سيأتي يوم تعرفين فيه أنني مُحق.

تذكرتني سهير الصغيرة، لكنها لم تُخبر أحدًا حتى أسامة.

تذكرت حين أسقطت الكتاب عليَّ وأنا بعد في الخامسة عشر. تذكرت حين لمحتني وأنا أتعقبها كالمُتيَّم كي أعرف أين تسكن.كنت أهيم بها حبًا، لكنها كانت تخافني بشدة، حتى وأنا بعدُ طاهرًا لم أتلوث. لم تكن تعرف بالطبع السبب في تتبعي لها، لكنني عرفت أنها تكبرني بعشرة أعوام، وأنها متزوجة، ولديها طفلة تُدعى رانيا. ولم أكف عن تتبعها حتى يوم المولد إياه.

صُدمت، لكن قلبي كان قد تعلق بها لسبب لا يعلمه إلا الله، وكأنها مست روحي ذاتها فأسرتها. لكنني بعد أكثر من عشرة أعوام على لقائي بها في المولد، فقدت روحي في ركن مظلم من أرجاء جسدي المحطم. سهير الصغيرة في ذلك الركن، وقد حجبتها عني الشياطين إلى الأبد.

لقد انتقمت مني الشياطين في أمي وأخي وفي ذكرى سهير، لكنني انتصرت بعدها مرات ومرات.

في يوم الخميس، الأول من نوفمبر، عام ٢٠٠٧، التهمتُ أول الشياطين. وحتى يوم التاسع عشر من نوفمبر ٢٠٢٠، كنت على ما عاهدتُ نفسي عليه بألا أتواصل مع سهير مُطلقًا وألا أزج بها فيما تورطتُ فيه. لكن ما حدث في رحلاتي خلال الثلاثة عشر عامًا السابقة قد دفعني دفعًا للتواصل معها. وسأحكي لكم ما حدث خلال تلك الفترة، وما سيحدث بعدها حتى أنهي انتقامي، وأحطم آله الرعب اللعينة للأبد.

كفعل بشري أخير سأحكي، ولأنني وعدت سهير سأحكي.

عادت آلة الرعب لتعمل، وتطحن بين تروسها الأبرياء. الأمر أكبر مما يظنه أحد، والكل متورط بلا استثناء.

لم أقصد إرعابها مني، لكنني كنت أود لو تراجعت عن هذا البرنامج رغم علمي أنها لن تستطيع. قلت:

- سأنهي المكالمة كما تشاؤون، وسأترككم تعودون إلى لعبكم حينًا، قبل أن يحل الليل فجأة، وتضطرون إلى الهرب إلى بيوتكم كالدجاج المذعور..

سلام!



انتظرونا في الكتاب الثاني

أبناء ديهيا